بَيتُ الحَيَاة
أسرار البيان واللغة العربية
الجزء الثاني
أبو حفص أ.ب.ش
baytalhayat.com

تنبيه للقارئ

هذا الكتاب متاح **مجانًا** شكرا للخالق ونصحا للخلق.

أرجو تداوله بصورته الأصلية مع ذكر المصدر عند الاقتباس.

أسأل الله أن يتقبّله مني وأن ينفع به قارئه

١٤٤٧هـ - ٢٠٢٦م

https://baytalhayat.com

تنبيه منهجي

قد تَرِد في هذا الكتاب اقتباسات تم تكييف بعض ألفاظها أو ترتيبها أو حذفها لتناسب السياق الأدبي والحواري للقصة، دون الإخلال بالمعنى المقصود، مع الالتزام بذكر مصادرها والإشارة إليها بـ"تصرف".

الفهرس

١	السر الأوّل: نعمة البيان	11
٢	السر الثاني: الصوت	16
٣	السر الثالث: الهواء	19
٤	السر الرابع: الحفظ والنسيان	21
٥	السر الخامس: البيان غذاء الروح والعقل	23
٦	الذوق	26
٧	السر السادس: مَلَكة البيان	34
٨	السر السابع: سر التأثير	37
٩	فضل العقل والبيان الراقي	40
١٠	خطورة اللسان	53
١١	السر في اختيار الكلام	57
١٢	من آثار البيان الشريف	59

١٣	السر الثامن: النفس تمل		64
١٤	السر التاسع: سبب نزول القرآن الكريم		70
١٥	اللغة العربية		74
	١	الكلمة عند انفرادها	75
	٢	الكلمة عند تركيبها	105
١٦	أمثلة من القرآن الكريم		110

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين

الأرض:

هذه بعض الأسرار...ما رأيكم الآن أن نخرج بالنّفس إلى علم الشهادة، المحسوس؟

الأولاد:

كيف؟

الأرض:

في الحقيقة لن نخرج ذاتها ولكن ما يُعبّر عن ذاتها

الأولاد:

نحن معك على كلّ حال

الأرض:

حسنا! سنركب طائرة البيان

الأولاد:

طائرة البيان؟! ماذا تعنين؟

الأرض:

اللغة، هي التي تُبين عمّا داخلنا

الأولاد:

إننا نرى ذلك

الأرض:

أتعلمون أنّها من أقوى الأدلّة على وجود الله -عز وجل- ؟ وأنّها تنطوي على ذخائر من الأسرار النفيسة

ليو:

حقا!! أنا متشوّق جدا لمعرفتها!

الأرض:

لنركب الطائرة إذا! أنتم مُستعدّون؟

الأولاد:

مُستعدون!

الأرض:

كيف يكون حالنا لو كنا عديمي البيان؟ كيف كنا سنعبر عن حاجاتنا؟ كيف كنا سنتواصل مع الآخرين؟

آرثر:
شديدة جدا... كالمُقْعَد الذي يرى ما هو محتاجٌ إليه ولا تمتدُّ إليه يدُه ولا رجلُه

الأرض:
أحسنت يا بني!
وكيف سيكون حال المجتمع؟ كيف كنا نكتب العقود والمواثيق؟

أوليفر:
تُضاع الحقوق، وتكثر الخصومات

الأرض:
نعم... بل كيف كنا سنتعلم العلوم؟ وكيف كانت العلوم نفسها تتطوّر لولا اتصال ماضيها بحاضرها؟ واتصال الحضارات بعضها ببعض!

الأولاد:

حقا إنها لنعمة عظيمة نغفل عنها!

الأرض:

هكذا هو الإنسان، يغفل عن المعتاد... هذه أوّل محطّتنا والسرّ الأوّل...

"تأمَّلوا نعمة الله على الإنسان بالبيانَيْن: البيان النُّطقيّ، والبيان الخطّيّ، وقد اعتدَّ بهما سبحانه في جملة ما اعتدَّ به مِنْ نِعَمه على العبد، فقال تعالى في أوَّل سورةٍ أنزلت على رسوله - صلى الله عليه وسلم -: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥].

فتأمَّلوا كيف جمع في هذه الكلمات مراتبَ الخلق كلَّها، وكيف تضمَّنت مراتبَ الموجودات الأربعة بأوجز لفظٍ وأوضحه وأحسنه:

فذكر أوَّلًا عمومَ الخلَق، وهو إعطاءُ الوجود الخارجيّ.

ثمَّ ذكر ثانيًا خصوصَ خَلق الإنسان، لأنَّ موضع العِبرة والآية فيه عظيمة، ومن شُهوده عن ما فيه محض تعدُّد النِّعم.

وذكر مادَّة خَلقه هاهنا من العَلقة، وفي سائر المواضع يذكُر ما هو سابقٌ عليها، إمَّا مادَّةً أصليَّةً وهو التُّرابُ أو الطِّين أو الصَّلصالُ كالفخَّار، وإمَّا مادَّة الفرع وهو الماءُ المَهِين، وذكر في هذا الموضع أوَّل مبادئ تعلُّق التَّخليق به وهي العَلقة، فإنه كان قبلها نطفة، فأوَّلُ انتقالها إنما هو إلى العَلقة.

ثمَّ ذكر ثالثًا التعليمَ بالقلم الذي هو من أعظم نِعَمه على عباده؛ إذ به **تُخَلَّدُ العلوم، وتثبتُ الحقوق، وتُعْلَمُ الوصايا، وتُحْفظُ الشهادات، ويُضْبطُ حسابُ المعاملات الواقعة بين النَّاس، وبه تقيَّدُ أخبارُ الماضين للباقين، وأخبارُ الباقين للَّاحقين.**

ولولا الكتابةُ لانقطعت أخبارُ بعض الأزمنة عن بعض، ودَرَسَت السُّنن، وتخبَّطت الأحكام، ولم يَعْرِف الخلَفُ مذاهبَ السَّلف، وكان يعظُم الخللُ الدَّاخلُ على النَّاس في دينهم ودنياهم؛ لِمَا يعتريهم من النِّسيان الذي يمحو صُوَر العلم من قلوبهم، فجَعَل لهم الكتابَ وعاءً حافظًا للعلم من الضياع، كالأوعية التي تحفظُ الأمتعة من الذَّهاب والبطلان.

فنعمةُ الله عزَّ وجلَّ بتعليم القلم مِنْ أجلِّ النِّعم، والتعليمُ به وإن كان مما يتخلَّصُ إليه الإنسانُ بالفطنة والحيلة فإنَّ الذي بلغ به ذلك وأوصله إليه عطيَّةٌ وهبها الله منه، وفضلٌ أعطاه الله إياه، وزيادةٌ في خَلْقه وفضيلة ؛ فهو الذي علَّمه الكتابة، وإن كان هو المتعلِّم ففعلُه فعلُ مُطاوِعٍ لتعليم الذي علَّم بالقلم؛ فإنه علَّمه فتعلَّم، كما أنه علَّمه الكلام فتكلَّم.

هذا، ومن أعطاه الذِّهن الذي يَعِي به، واللسانَ الذي يُتَرْجِمُ به، والبنانَ الذي يَخُطُّ به؟! ومن هيَّأ ذهنَه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات؟! ومن الذي أنطق لسانه، وحرَّك بنانه؟! ومن الذي دَعَمَ البنانَ بالكفِّ، ودَعَمَ الكفَّ بالسَّاعد؟!

فكم لله من آيةٍ نحنُ غافلون عنها في التعليم بالقلم!

فقِفوا وقفةً في حال الكتابة، وتأمَّلوا حالكم وقد أمسكتُم القلمَ وهو جماد، ووضعتُموه على القرطاس وهو جماد، فيتولَّدُ من بينهما أنواعُ الحِكَم، وأصنافُ العلوم، وفنونُ المراسلات والخُطب، والنَّظم والنَّثر، وجوابات المسائل!

فمن الذي أجرى تلك المعاني على قلوبكم ورَسَمها في ذهنكم، ثمَّ أجرى العبارات الدَّالَّة عليها على لسانكم، ثمَّ حرَّك بها بنانكم حتى صارت نقشًا عجيبًا، معناه أعجبُ مِنْ صورته، فتقضون به مآربكم وتبلُغون به حاجةً في صدوركم، وترسلونه إلى الأقطار النَّائية والجهات المتباعدة فيقومُ مقامَكم، ويُتَرْجِمُ عنكم، ويتكلَّمُ على لسانكم، ويقومُ مقام رسولكم، ويُجْدِي عليكم ما لا يُجْدِي من ترسلُه سوى من علَّم بالقلم، علَّم الإنسانَ ما لم يعلم؟!

والتعليمُ بالقلم يستلزمُ المراتبَ الثلاثة: مرتبة الوجود الذِّهنيِّ، والوجود اللفظيِّ، والوجود الرَّسميِّ.

فقد دلَّ التعليمُ بالقلم على أنه سبحانه هو المعطي لهذه المراتب، ودلَّ قولُه: ﴿خَلَقَ﴾ على أنه يعطي الوجود العينيَّ؛ فدلَّت هذه الآياتُ ـ مع اختصارها ووجازتها وفصاحتها ـ على أنَّ مراتبَ الوجود بأسرها مسندةٌ إليه تعالى خلقًا وتعليمًا.

وذكر خَلقَين وتعليمَين: خَلقًا عامًّا وخَلقًا خاصًّا، وتعليمًا خاصًّا وعامًّا.

وذكر مِنْ صفاته هاهنا: اسمَ ﴿الْأَكْرَمُ﴾ الذي فيه كلُّ خيرٍ وكلُّ كمال؛ فله كلُّ كمالٍ وُصِف، ومنه كلُّ خيرٍ فُعِل، فهو الأكرمُ في ذاته وأوصافه

وأفعاله، وهذا الخلَقُ والتعليمُ إنما نشأ مِنْ كرمه وبِرِّه وإحسانه، لا من حاجةٍ دَعَتْهُ إلى ذلك، وهو الغنيُّ الحميد.

وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤]، دلَّت هذه الكلماتُ على إعطائه سبحانه مراتبَ الوجود بأسرها:

فقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ إخبارٌ عن الإيجاد الخارجيّ العَينيّ، وخَصَّ الإنسانَ بالخلَق لِمَا تقدَّم.

وقوله: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ إخبارٌ عن إعطاء الوجود العلميّ الذِّهنيّ؛ فإنما تعلَّم الإنسانُ القرآنَ بتعليمه، كما أنه إنما صار إنسانًا بخَلقه، فهو الذي خلقه وعلَّمه.

ثمَّ قال: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾، والبيانُ هنا يتناولُ مراتبَ ثلاثةً كلٌّ منها يسمَّى بيانًا:

أحدها: البيانُ الذِّهنيُّ الذي يميِّز فيه بين المعلومات.

الثاني: البيانُ اللفظيُّ الذي يعبِّر به عن تلك المعلومات ويُتْرجِمُ عنها فيها غيره.

الثالث: البيانُ الرَّسميُّ الخطِّيُّ الذي يرسُم به تلك الألفاظ، فتَبِينُ للنَّاظر معانيها كما تَبِينُ للسَّامع معاني الألفاظ.

فهذا بيانٌ للعَين، وذاك بيانٌ للسَّمع، والأوَّلُ بيانٌ للقلب.

وكثيرًا ما يجمعُ سبحانه بين هذه الثَّلاثة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، ويذُمُّ من عَدِم الانتفاع بها في اكتساب الهدى والعلم النَّافع، كقوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: ١٨]، وقوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]."[1] اهـ

ليو:

حقا! كيف لم أفكّر في هذا؟! إنّه لأمر عجيب!

الأرض:

أتدرون ما الأعجب منه؟

الأولاد:

وهل هناك أعجب منه؟

الأرض:

[1] مفتاح دار السعادة، ابن القيم

نعم... لنتقدّم للمحطّة التالية والسر الثاني... "**تأمَّلوا هذا الصَّوتَ الخارجَ من الحلق وتهيئةَ آلاته**، والكلامَ وانتظامَه، والحروفَ ومخارجَها وأدواتها ومقاطعَها وأجراسَها، تجدون الحكمةَ الباهرة في هواءٍ ساذَجٍ يخرجُ من الجوف، فيسلكُ في أنبوبة الحنجرة، حتى ينتهي إلى الحلق واللسان والشفتين والأسنان، فيحدثُ له هناك مقاطعُ ونهاياتٌ وأجراس، يُسْمَعُ له عند كلِّ مقطعٍ ونهايةٍ جَرْسٌ متميزٌ منفصلٌ عن الآخر، يحدثُ بسببه الحرف.

فهو صوتٌ واحدٌ ساذَجٌ يجري في قَصَبةٍ واحدةٍ حتى ينتهي إلى مقاطع وحدودٍ تُسمَعُ له منها تسعةٌ وعشرون جَرْسًا، يدورُ عليها الكلامُ كلُّه: أمرُه ونهيُه، وخبرُه واستخبارُه، ونظمُه ونثرُه، وخطبُه ومواعظُه وفصولُه.

فمنه المضحِك، ومنه المبكِي، ومنه المُؤْيِس، ومنه المُطْمِع، ومنه المخوِّف، ومنه المرجِّي، والمسلِّي، والمُحْزِن، والقابضُ للنَّفس والجوارح، والمنشِّطُ لهما، والذي يُسْقِمُ الصَّحيحَ ويُبرِؤ السَّقيم، ومنه ما يزيلُ النِّعمَ ويُحِلُّ النِّقم، ومنه ما يُستَدفعُ به البلاء، ويُستَجلبُ به النَّعماء، ويستمالُ به القلوبُ، ويؤلَّفُ بين المتباغضين، ويُوالى بين المتعاديين، ومنه ما هو بضدِّ ذلك، ومنه الكلمةُ التي لا يلقي لها صاحبُها بالًا يهوي بها في النَّار أبعدَ ما بين المشرق والمغرب، والكلمةُ التي لا يلقي لها بالًا صاحبُها يَرْكُض بها في أعلى عِلِّيِّين في جوار ربِّ العالمين.

فسبحان من أنشأ ذلك كلَّه من هواءٍ ساذَجٍ يخرجُ من الصَّدر، لا يدري ما يرادُ به، ولا أين ينتهي، ولا إلى أين مستقرُّه!

هذا إلى ما في ذلك من **اختلاف الألسنة واللُّغات** التي لا يحصيها إلا الله عزَّ وجل، فيجتمعُ الجمعُ من النَّاس من بلادٍ شتَّى فيتكلَّمُ كلٌّ منهم بلُغَته، فتسمعُ لغاتٍ مختلفةً وكلامًا منتظمًا مؤلَّفًا، ولا يدرِكُ كلٌّ منهم ما يقولُ الآخر.

واللسانُ الذي هو جارحةٌ واحدٌ في الشَّكل والمنظر، وكذلك الحلقُ والأضراسُ والشَّفتان، والكلامُ مختلفٌ متفاوتٌ أعظمَ اختلاف، فالآيةُ في ذلك كالآية في الأرض التي تسقى بماءٍ واحد، ويخرجُ من ذلك من أنواع النَّبات والأزهار والحبوب والثمار تلك الأنواعُ المختلفةُ المتباينة.

ولهذا أخبر الله سبحانه في كتابه أنَّ في كلٍّ منهما آياتٍ، فقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

فانظروا الآن إلى الحَنجَرة، كيف هي كالأنبوب لخروج الصَّوت، واللسانُ والشَّفتان والأسنانُ لصياغة الحروف والنَّغَمات.

ألا ترون أنَّ من سقطت أسنانُه لم يُقِم الحروفَ التي تخرجُ منها ومن اللسان، ومن نقصت شفتُه كيف لم يقِم الحروفَ الشفهيَّة، ومن ثقُل لسانُه كيف لم يُقِم الرَّاء واللام والذال، ومن عرضت له آفةٌ في حلقه كيف لم يتمكَّن من الحروف الحلقيَّة؟!

وقد شبَّه أصحابُ التَّشريح مخرجَ الصَّوت بالمزمار، والرِّئةَ بالزِّقِّ الذي يُنفَخُ به مِنْ تحته ليدخل الرِّيح فيه، والعضلات التي تَقْبِض على الرِّئة ليخرجَ الصَّوتُ من الحَنَجَرة بالأُكُفِّ التي تقبض على الزِّقِّ حتى يخرجَ الهواءُ في القَصَبة، والشفتين والأسنانَ واللسانَ التي تَصُوغُ الصَّوتَ حروفًا ونَغَمًا بالأصابع التي تختلفُ على المزمار فتصوغُه ألحانًا، والمقاطعَ التي ينتهي إليها الصَّوتُ بالأبخاش التي في القَصَبة، حتى قيل: إنَّ المزمار إنما اتُّخِذ على مثال ذلك من الإنسان.

فإذا تعجَّبتُم من الصِّناعة التي تعملُها أُكُفُّ النَّاس حتى تخرجَ منها تلك الأصوات، فما أحراكُم بطول التَّعجُّب من الصِّناعة الإلهيَّة التي أخرجت تلك الحروفَ والأصوات منكم، من اللحم والدَّم والعُروق والعظام، ويا بُعْد ما بينهما! **ولكنَّ المألوفَ المعتاد لا يقعُ عند النُّفوس موقعَ التَّعجُّب**، فإذا رأيتم ما لا نسبة له إليه أصلًا إلا أنه غريبٌ عندها تلقَّته بالتَّعجُّب وتسبيح الرَّبِّ تعالى، وعندها من آياته العجيبة الباهرة ما هو أعظمُ من ذلك مما لا يدركُه القياس.

ثمَّ تأمَّلوا اختلاف هذه النَّغَمات، وتباينُ هذه الأصوات، مع تشابه الحناجر والحُلُق والألسنة والشِّفاه والأسنان، فمن الذي ميَّز بينها أتمَّ تمييزٍ مع تشابهِ محالِّها سوى الخلَّاق العليم؟!"[2] **اهـ**

الأولاد:

اييه! أنت محقة!

الأرض:

هناك أعجب...

الأولاد متحمّسين

الأرض:

للمحطّة التالية... "تأمَّلوا هذا الهواءَ وما فيه من المصالح؛ فإنه حياةُ هذه الأبدان والممسكُ لها من داخلٍ بما تَستَنشِقُ منه، ومن خارجٍ بما تُباشَرُ به من رَوْحِه، فتتغذَّى به ظاهراً وباطناً.

وفيه **تُطْرَدُ هذه الأصواتُ فيَحْمِلُها ويؤدِّيها للقريب والبعيد**؛ كالبريد والرسول الذي شأنُه حملُ الأخبار والرسائل.

[2] نفس المصدر السابق

وهو الحاملُ لهذه الروائح على اختلافها، ينقلُها من موضعٍ إلى موضع، فتأتي العبدَ الرائحةُ من حيثُ تهبُّ الريح، وكذلك يأتيه الصوت.

ونُنبِّه للطيفةٍ في هذا الهواء، وهي أنَّ الصَّوتَ أثرٌ يحدثُ عن اصطكاك الأجرام، وليس نفسَ الاصطكاك كما قال ذلك من قاله. ولكنَّه مُوجَبٌ للاصطكاك وقَرْع الجسم للجسم أو قَلْعِه عنه؛ فسببُه قرعٌ أو قلع، فيحدثُ الصَّوت، فيحملُه الهواءُ ويؤدِّيه إلى مسامع الناس، فينتفعون به في حوائجهم ومعاملاتهم بالليل والنَّهار، وتحدثُ الأصواتُ العظيمةُ من حركاتهم.

فلو كان أثرُ هذه الحركات والأصوات يبقى في الهواء كما يبقى الكتابُ في القرطاس لامتلأ العالمُ منه، ولعَظُمَ الضررُ به واشتدَّت مُؤنتُه، واحتاج النَّاسُ إلى مَحْوِه من الهواء، والاستبدال به، أعظمَ من حاجتهم إلى الاستبدال بالكتاب المملوء كتابةً ؛ فإنَّ ما يُلقى من الكلام في الهواء أضعافُ ما تُودَعُه القراطيس.

فاقتضت حكمةُ العزيز الحكيم أنْ جَعَل هذا الهواءَ قرطاسًا خفيًّا، يحمِلُ الكلامَ بقَدْر ما يبلغُ الحاجةَ ثمَّ يُمحى بإذن ربِّه، فيعودُ جديدًا نقيًّا لا شيء فيه، فيَحْمِلُ ما حمِّل كلَّ وقت."[3]اهـ

الأولاد:

[3] نفس المصدر السابق

اييييه!!!

لم ينس الخالق شيئا! بل لو كُلّفنا نحن البشر بخلقه لما تفكرنا فيه! قال ليو

الأرض:

وهناك أمر آخر لطيف نذكره هنا... هذا الأمر هو **الحفظ والنسيان**

"تأمَّلوا حكمة الله عزَّ وجلَّ في الحفظ والنِّسيان الذي خَصَّ به نوعَ الإنسان وما له فيهما من الحِكم، وما للعبد فيهما من المصالح؛ فإنه لولا القوَّةُ الحافظةُ التي خُصَّ بها لدَخَل عليه الخللُ في أموره كلِّها ولم يَعْرِف ما له وما عليه، ولا ما أخذ ولا ما أعطى، ولا ما سَمِع ورأى، ولا ما قال ولا ما قيل له، ولا ذَكر من أحسَن إليه ولا من أساء إليه، ولا من عامله، ولا من نفَعه فيقرُب منه، ولا من ضرَّه فينأى عنه، ثمَّ كان لا يهتدي الطَّريق الذي سلكه أوَّل مرَّةٍ ولو سلكه مرارًا، ولا يعرفُ علمًا ولو دَرَسَه عمرَه، ولا ينتفعُ بتجربة، ولا يستطيعُ أن يعتبر شيئًا على ما مضى، بل كان خليقًا أن ينسلخ من الإنسانيَّة أصلًا.

فتأمَّلوا عظيمَ المنفعة عليكم في هذه الخِلال، وموقع الواحدة منهنَّ فضلًا عن جميعهنَّ.

ومِنْ أعجب النِّعم عليه نعمةُ النِّسيان؛ فإنه لولا النِّسيانُ لما سَلَا شيئًا، ولا انقضت له حسرة، ولا تعزَّى عن مصيبة، ولا مات له حُزن، ولا بَطَل

له حِقْد، ولا استمتع بشيءٍ من متاع الدُّنيا مع تذكُّر الآفات، ولا رجا غفلةً من عدوِّه ولا فترةً من حاسده.
فتأمَّلوا نعمة الله عليه في الحفظ والنِّسيان مع اختلافهما وتضادِّهما وجعَل له في كلِّ واحدٍ منهما ضربًا من المصلحة."[4]اهـ

ليو:
أظن أن هناك أسرار أخر، أليس كذلك؟

الأرض:
بلى...حسنا... لنرتفع إلى الأعلى... وإلى المحطة التالية والسر التالي... وهذا السر من أخطر سر للبيان...

الأولاد:
ما هو؟ شوقتنا!

الأرض:
تمسكوا جيدا! وركّزوا ! فالأمر يحتاج إلى انتباه شديد...

[4] نفس المصدر السابق

الأولاد:

ها نحن منتبهون ! هيا!

الأرض:

حسنا... كما تعلمون الجسد يحتاج إلى الغذاء، فإن كان غذاءه صحيا سليما كان الجسد صحيا سليما... وإن كان الغذاء مضرا فاسدا، مرض الجسد وهلك... أليس كذلك؟

الأولاد:

بلى

الأرض:

كذلك الروح والعقل... لها غذاء... وغذاؤها البيان... فإن كان البيان شريفا فاضلا، كانت الروح شريفة فاضلة... وإن كان رذيلا حقيرا، كانت الروح كذلك... قال أَبُو حاتم: "فالواجب على العاقل أن يكون بما أحيا عقله من الحكمة أكلف منه بما أحيا جسده من القوت لأن **قوت الأجساد المطاعم وقوت العقل الحكم** فكما أن الأجساد تموت عند فقد

الطعام والشراب و**كذلك العقول إذا فقدت قوتها من الحكمة ماتت.**"[5]
اهـ

وقال ابن المقفع: "ولسنا إلى ما يمسك أرماقنا من المأكل والمشرب بأحوج منا إلى ما يثبت عقولنا من **الأدب الذي به تقاوت العقول،** وليس غذاء الطعام بأسرع في نبات الجسد من غذاء الأدب في نبات العقل، ولسنا بالكدِّ في طلب المتاع الذي يلتمس به دفع الضرر والغلبة، بأحق منا بالكد في طلب **العلم الذي يلتمس به صلاح الدين والدنيا.**"[6]
اهـ

وقال سقراط: "**إذا لم يتغذَّ ذلك الذوق باكتساب المعرفة أو طلب العلوم،** ولم يشترك في المباحث العقلية ومنازع العرفان، ألا **تضعف نفسه فيصبح أصم وأعمى البصيرة لافتقاره إلى المنبهات والغذاء الروحي،** ولأن ذهنه لم يتنقَّ التنقية التامة؟"[7] اهـ

ثمّ للبيان الحقير الدنيء تفاعل مع الروح كتفاعل الغذاء مع الجسد، فكليهما **سهل وآلف ويُفقد الإحساس الطبيعي للذوق**... كما ترون من يتناول السكريات، كلما تناولها أراد أكثر، فيدمن عليها، فيفقد حس

---

[5] روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ابن حبان
[6] الأدب الصغير، ابن المقفع
[7] الجمهورية، أفلاطون

الذوقي الطبيعي، ولم يعد يشعر بطعم الفاكهة من كثرة ما تناوله من سكر... وهكذا البيان، يقول الجاحظ: "اعلموا أن **المعنى الحقير الفاسد، والدني الساقط، يعشش في القلب ثم يبيض ثم يفرخ**، فإذا ضرب بجرانه ومكن لعروقه، استفحل الفساد وبزل، وتمكن الجهل وقرح، فعند ذلك **يقوى داؤه، ويمتنع دواؤه**، لأن **اللفظ الهجين الردي، والمستكره الغبي، أعلق باللسان، وآلف للسمع، وأشد التحاما بالقلب من اللفظ النبيه الشريف**، والمعنى الرفيع الكريم. ولو جالست الجهال والنوكى، والسخفاء والحمقى، شهرا فقط، لم تنق من أوضار كلامهم، وخبال معانيهم، بمجالسة أهل البيان والعقل دهرا، لأن **الفساد أسرع إلى الناس، وأشد التحاما بالطبائع**. والإنسان بالتعلم والتكلف، وبطول الاختلاف إلى العلماء، ومدارسة كتب الحكماء، يجود لفظه ويحسن أدبه، وهو لا يحتاج في الجهل إلى أكثر من ترك التعلم، وفي فساد البيان إلى أكثر من ترك التخير."[8] اهـ

فالبيان كما قال ابن تيمية: "واعلم أن **اعتياد اللغة يؤثر في العقل، والخلق، والدين تأثيراً قويًّا بيّناً**."[9] اهـ

---

[8] البيان والتبيين، الجاحظ
[9] اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية

ليو:
وكليهما، الأكل المضر والبيان القبيح، لذّتهما تُعقب ألما وشقاء، أليس كذلك؟

الأرض مبتسمة:
بلى!... أحسنت!... فمن ذلك **مشاهدة الأفلام الإباحية**، فهي تجعل الدماغ يتعرّض لتحفيز فوق الطبيعي، فيَخْلُق فيه الإدمان وطلب متعة أكثر تأثيرا دائما، ممّا يُفقده المتعة الحقيقيّة، ويؤثّر على رغبته وأدائه الحقيقي مع زوجته وعلاقته بها...بل **تُدمّر حياته عموما** وتمنعه من تحقيق أهدافه... هكذا هو البيان القبيح، يُفسد النفس والعقل والذوق

آرثر:
عفوا، كيف يُفسد الذوّق؟

الأرض:
بماذا تحس بأنّ الطعم حلو أو مر أو مالح؟ أليس بحاسة الذوق؟

آرثر:
بلى

الأرض:

كذلك الروح لها حاسة الذوق، تتذوق به البيان السمعي والبصري... من أدب وشعر وحكمة وعلم وصورة... فتتمتع بالجميل وتنفر من القبيح

آرثر:

أليس الذوق نسبي؟ ما يُعجبني قد لا يُعجبك

الأرض مبتسمة:

هل تظن أنّ شخصا يصرخ بصوت عالٍ، ويقول لك أنّه يُغنّي... فهل تظنّه يُعجب معظم الناس؟

آرثر:

بالتأكيد لا

الأرض:

وهل تظن أن شخصا له وجه صغير، وأنف ضخم، وعينه اليمنى ضِعْفا اليسرى، وأذنه اليمنى أصغر من اليسرى، قصير القامة، ويداه طويلتان... فهل تظنّه جميلا

آرثر:

لست أنا فقط، بل معظم الناس

الأرض:

إذا... هناك أمور يتفق عليها البشر على أنّها جميلة، أليس كذلك؟

آرثر:

بلى

الأرض:

هذه هي الفطرة... مثلها في الذوق والجمال مثل الأطعمة، فهناك أطعمة صحيّة مُتّفق عليها، ثمّ منهم من يُفضّل وجبة على أخرى... وهكذا **الذوق، هناك جانب أساسي مشترك،** كالتناسق والتوازن، والإيقاع، والاستعارة والكناية... وهناك **جانب شخصي،** كتفضيل لون على لون، أو أسلوب على آخر... وهذا لا يخفى على المصممين المحترفين والأدباء البلاغيين يقول ليوناردو دافنشي: "ما أول دراسة ينبغي أن يقوم بها الرسّام الشاب؟ **إنّ المنظور هو أول ما يجب على الرسّام الشاب أن يتعلّمه، ليعرف كيف يضع كلَّ شيء في موضعه، وليعطيه القياس الصحيح الذي ينبغي أن**

يكون له في المكان الذي يوجد فيه، ثم بعد ذلك يختار أستاذًا صالحًا يعرّفه الجميلَ من الأشياء..."[10]اهـ

ويقول أيضا: "تقسيم الرسم الخطيّ

وينقسم الرسم الخطيّ أيضًا إلى قسمين:

الأول: **تحقيق التناسب بين الأجزاء بعضها مع بعض، بالنسبة إلى الكلّ الذي ينبغي أن تؤلّفه.**

والثاني: الهيئة أو الوضعية التي يجب أن تلائم موضوع الرسم، **وأن توافق القصد والمشاعر التي يُفترض وجودها في الشخصية التي يجري تمثيلها.**"[11]اهـ

ويقول سقراط: "**س :** ونقول عن يقين أن **النفس المرتبكة غير المهذبة هي كُلية الاتجاه إلى عدم الاتساق.**

غ : حقيق.

س : أوَحليفة الاتساق الحقيقة أم حليفة عدمه؟

غ : حليفة الاتِّساق.

---

[10] رسالة في فنّ الرسم، ليوناردو دافنشي

[11] نفس المصدر السابق

س : فندرج في عداد مطالبنا **عقلًا مطبوعًا على الجمال والاتِّساق**، في من تأذن له غرائزه أن يفهم صور الأشياء على ما هي في ذاتها.

غ : من كل بُد."[12] اهـ

وقال أيضا: "س : **فحسن البيان وصحة الوزن والجزالة والإيقاع كافةً تتوقف على الطبيعة الصالحة**، ولا أقصد بها السذاجة التي مجاملةً ندعوها طبيعةً صالحة، بل أقصد بها **العقل السليم سلامةً حقيقيةً، تجلَّتْ سلامته في السجية الأدبية الشريفة.**

(...)

للرشاقة والمعاظلة دخلًا في كل هذه الأوساط. **وفقدان الجزالة والإيقاع واللحن حليف الأسلوب الفاسد والخُلُق الرديء.** أما وجودها فحليف الخُلُق الحميد، أي الشجاعة والرزانة وإعلان له.

غ : مُصيبٌ كل الإصابة."[13] اهـ

---

[12] الجمهورية، أفلاطون
[13] نفس المصدر السابق

ويقول عبد القاهر الجرجاني: "**وكان من المركوزِ في الطباعِ، والراسخِ في غرائزِ العقولِ،** أنه متى أُريد الدلالةُ على معْنى، فتُرك أنْ يُصرَّحَ به ويُذْكَر باللفظ الذي هو له في اللغة، وعُمد إلى معنى آخر فأُشير به إليه، وجُعل دَليلاً عليه كان للكلام بذلك حسْنٌ ومزيَّة لا يكونان إذا لم يُصنَع ذلك، وذكر بلفظه صريحًا."[14] اهـ

وقال الماوردي: "**وَلِلْأَمْثَالِ مِنْ الْكَلَامِ مَوْقِعٌ فِي الْأَسْمَاعِ وَتَأْثِيرٌ فِي الْقُلُوبِ لَا يَكَادُ الْكَلَامُ الْمُرْسَلُ يَبْلُغُ مَبْلَغَهَا،** وَلَا يُؤَثِّرُ تَأْثِيرَهَا، لِأَنَّ الْمَعَانِيَ بِهَا لَائِحَةٌ، وَالشَّوَاهِدَ بِهَا وَاضِحَةٌ، وَالنُّفُوسَ بِهَا وَامِقَةٌ، وَالْقُلُوبَ بِهَا وَاثِقَةٌ، وَالْعُقُولُ لَهَا مُوَافِقَةٌ."[15] اهـ

آرثر:

أنت محقة...

الأرض:

هل قولك "رأيت رجلا شجاعا" له نفس التأثير كما لو قلتَ "رأيت أسدا" ؟

---

[14] دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني ت محمود شاكر

[15] أدب الدنيا والدين، الماوردي

الأولاد:

لا، الجملة الثانية له تأثير أقوى

الأرض:

وكذا إِذا قلتَ: "هو كثيرُ رمادِ القدْر"، كان له تأثيرٌ في النفس لا يكون إِذا قلتَ: "هو كثيرُ القِرى والضِّيافة".

وكذا إِذا قلتَ: "هو طويلُ النِّجاد"، كان له تأثيرٌ في النفس لا يكون إِذا قلتَ: "هو طويلُ القامة".

وكذلك إِذا قلتَ: "أَلقى حبْلَه على غاربه"، كان له مأخَذٌ من القَلْب لا يكونُ إِذا قلتَ: "هو كالبعيرِ الذي يُلْقَى حَبْلُه على غاربة حتى يَرْعى كيْفَ يشاءُ ويذهَبَ حيثُ يُريد".

وكذا إِذا قلتَ: "لا طَعم للحياة من دونكِ"، كان له تأثيرٌ في النفس لا يكون إِذا قلتَ: "أحبّك".

وكذا إِذا قلتَ: "بَلى أَنا مُشتاقٌ وَعِندِيَ لَوعَةٌ

وَلَكِنَّ مِثلي لايُذاعُ لَهُ سِرُّ

إِذا اللَيلُ أَضواني بَسَطتُ يَدَ الهَوى

وَأَذلَلتُ دَمعاً مِن خَلائِقِهِ الكِبرُ

"، كان له تأثيرٌ في النفس لا يكون إذا قلتَ: "أشتاق إليك".

وكذا إذا أردتَ الحثّ على طلب العلم، فقلت كما قال الشافعي:

اصْبِرْ عَلَى مُرِّ الْجَفَا مِنْ مُعَلِّمٍ

فَإِنَّ رُسُوبَ الْعِلْمِ فِي نَفَرَاتِهِ

وَمَنْ لَمْ يَذُقْ مُرَّ التَّعَلُّمِ سَاعَةً

تَجَرَّعَ ذُلَّ الْجَهْلِ طُولَ حَيَاتِهِ

وَمَنْ فَاتَهُ التَّعْلِيمُ وَقْتَ شَبَابِهِ

فَكَبِّرْ عَلَيْهِ أَرْبَعًا لِوَفَاتِهِ

وَذَاتُ الْفَتَى وَاللهِ بِالْعِلْمِ وَالتُّقَى

إِذَا لَمْ يَكُونَا لَا اعْتِبَارَ لِذَاتِهِ

كان له تأثير في النفس لا يكون لو كان الكلام مباشرة...

ليو:

آآآه ما أحلى هذا الكلام!

أمّنا! كيف نستطيع أن نُعبّر مثلهم؟ أريد حقا الكلام بالبيان الجميل مثل من ذكرت... كيف السبيل إليه؟

الأرض:

إلى المحطة التالية والسر التالي إذا[16]... ها نحن وصلنا إلى سرّ **مَلَكَة البيان**... وهي في الحقيقة لا تختلف عن سائر الملكات، العلمية والصناعية والرياضية... فأوّل شيء هو **التّعرّف على قوانين العلم**... لأنّ الأمر ليس عشوائيا، حتى في الرياضة... ثمّ **تكرار الفعل**... هذا هو ببساطة... فلو تعرّفتَ على القوانين ولم تُكرّر، فإنك تعرفت على كيفيّة العمل وليس نفس العمل، **مثل من يعرف صناعة من الصّنائع علما ولا يحكمها عملا.** كأن يقول بصير بالخياطة غير محكم لملكتها في التّعبير عن بعض أنواعها... الخياطة هي أن يدخل الخيط في خرت الإبرة ثمّ يغرزها في لفقي الثّوب مجتمعين ويخرجها من الجانب الآخر بمقدار كذا ثمّ يردّها إلى حيث ابتدأت ويخرجها قدّام منفذها الأوّل بمطرح ما بين الثّقبين الأوّلين ثمّ

[16] الكلام مأخوذ من مقدمة ابن خلدون، إلا أنّي تصرّفت فيها كثيرا من تقديم وتأخير وحشو كلام دافنشي، واختياري النظرية مع العمل.

يتمادى على ذلك إلى آخر العمل ويعطي صورة الحبك والتّثبيت والتّفتيح وسائر أنواع الخياطة وأعمالها... **وهو إذا طولب أن يعمل ذلك بيده لا يحكم منه شيئا.** وكذا لو سئل عالم بالنّجارة عن تفصيل الخشب فيقول: هو أن تضع المنشار على رأس الخشبة وتمسك بطرفه وآخر قبالتك ممسك بطرفه الآخر وتتعاقبانه بينكما وأطرافه المضرّسة المحدّدة تقطع ما مرّت عليه ذاهبة وجائية إلى أن ينتهي إلى آخر الخشبة. **وهو لو طولب بهذا العمل أو شيء منه لم يحكمه.**

كذلك لو مارس بدون قوانين العلم، لضيّع وقته ولربما ضيّع نفسه ونفس غيره، مثل لو مارس الطب قبل تعلّم علم الطب...
يقول ليوناردو دافنشي: "في كيفية التعلّم

ادرس أولًا الجانب النظري قبل الانتقال إلى الجانب العملي، فإنّ العمل ثمرةُ العلم. ينبغي للرسّام أن يدرس **بنظام ومنهج.** ولا ينبغي له أن يرى شيئًا جديرًا بالملاحظة إلا ويضع له رسمًا تخطيطيًّا ليحفظه في ذاكرته، وعليه أن يحرص على ملاحظة أعضاء الإنسان والحيوان، وحدودها الخارجية ومفاصلها."[17] اهـ

وقال: "في شأن الذين ينصرفون إلى الممارسة قبل تعلّم النظرية

[17] رسالة في فنّ الرسم، ليوناردو دافنشي

إنّ الذين يندفعون إلى ممارسة سريعة وخفيفة قبل أن يتعلّموا النظرية، أو قبل أن يتقنوا فنَّ إتمام رسومهم، يشبهون البحّارة الذين يركبون البحر في سفينة لا دفّة لها ولا بوصلة؛ فهم لا يعرفون أيَّ طريق ينبغي أن يسلكوا.

فالممارسة يجب أن تقوم دائمًا على نظرية صحيحة، يكون المنظور فيها هو الدليل والباب؛ إذ من دونه لا يمكن النجاح في شيء من فنّ الرسم، ولا في سائر الفنون التي تعتمد على التصميم والتخطيط."[18]اهـ

إذا الملكات لا تحصل إلّا بالعلم ثم بتكرار الأفعال، لأنّ الفعل يقع أوّلا وتعود منه للذّات صفة ثمّ تتكرّر فتكون حالا.

ومعنى الحال أنّها صفة غير راسخة ثمّ يزيد التّكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة.

واللغة ليست مُستثنات من هذا السر... وانظر ذلك مع الصبي، فهو يسمع استعمال المفردات في معانيها فيلقّنها أوّلا ثمّ يسمع التّراكيب بعدها فيلقّنها كذلك. ثمّ لا يزال سماعهم لذلك يتجدّد في كلّ لحظة ومن كلّ متكلّم واستعماله يتكرّر إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم. **هكذا تصيّرت الألسن واللّغات من جيل إلى جيل وتعلّمها العجم والأطفال.**

---

[18] نفس المصدر السابق

وعلى هذا من يريد أن يُحسّن من بيانه ويرفع من ذوقه، **فعليه بكثرة الحفظ من حسن البيان، من حكمة وشعر وخطابة، حتّى يرتسم في خياله المنوال الّذي نسجوا عليه تراكيبهم فينسج هو عليه ويتنزّل بذلك منزلة من نشأ معهم وخالط عباراتهم في كلامهم حتّى حصلت له الملكة المستقرّة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم.**

ليو:

يبدوا سهلا... سأستمع يوميا للبيان الجميل... وسأحفظ أجملها

الأرض:

إن شاء الله... سأذكر لك سرا يختصر لك الطريق، لمعرفة سر ذلك التأثير وإن كنا قد ذكرناه، لكن سأعبره لك بكلمة مُختصرة... إذا أردت أن يكون لكلامك حلاوة ووقوع في النفس، فـ"**لا تُخبر مباشرة بالشعور، ولكن اجعل السامع يفهم الشعور**"... مثال ذلك، لو قلت لزوجتك "أحبك جدا" فإنّك أخبرتها بالشعور مباشرة... لكن لو قلت لها "لا طعم للحياة من دونك" فهنا فهمت حبك لها، فكان أقوى وأوقع...

وهكذا كانت الأمثلة... "الأسد" يُفهم شعورا بالشجاعة... و"كثيرُ رمادِ القدْر" يفهم شعورا بالكرم والضيافة... ثمّ ذلك الشعور جاء على **هيئة صورة**، مما يزيدها رونقا وجمالا...

وهذا ما عبر عنه عبد القادر الجرجاني بـ"**معنى المعنى**"، إذ قال: "فههنا عبارة مختصرة وهي أن تقول: "المعنى"، و "معنى المعنى"، تعني بالمعنى المفهومَ من ظاهرِ اللفظِ والذي تَصِلُ إليه بغير واسطة و"**بمعنى المعنى**"، **أن تَعْقِل من اللفظِ معنًى، ثم يُفضي بكَ ذلكَ المعنى إلى معنى آخرَ**"[19] اهـ

ليو:

ياه!... شكرا لك يا أمّي!

آرثر ضاحكا:

لمن تُريد أن تتعلم البيان الجميل؟ لأختِ زميلك السابق؟

الأرض:

ومع ذلك، **لكلّ مقام مقال**... مقام للإيجاز، ومقام للإطناب والتكرار، وغير ذلك، كما قال ابن قتيبة: "ليس يجوز لمن قام مقاماً في **تحضيض على حرب أو حَمَالة بدم أو صلح بين عشائر أن يُقلّل الكلام ويختصره**، ولا

[19] دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني ت محمود شاكر

لمن كتب إلى عامَّةٍ كتاباً في فتحٍ أو استصلاحٍ أن يوجز. ولو كتب كاتب إلى أهل بلد في الدعاء إلى الطاعة والتحذير عن المعصية كتاب يزيد بن الوليد إلى مروان حين بلغه عنه تلكّؤُهُ في بيعته: " أمَّا بعد، فإني أراكَ تُقدِّم رِجْلاً وتؤخّرُ أُخرى، فاعتمدْ على أيتهما شئت، والسلام "؛ لم يعمل هذا الكلام في أنْفُسها عملهُ في نفس مروان، ولكن الصواب أن يُطيل ويُكرِّر، ويعيد ويُبدئ، ويُحذِّر ويُنذِرُ."[20] اهـ

كما "أنّه يُستحبُّ له أيضاً أن يُنزّل **ألفاظه في كتبه فيجعلها على قدر الكاتب والمكتوب إليه**، وأن لا يعطيَ خسيس الناس رفيع الكلام، ولا رفيع الناس وضيعَ الكلام؛ فإنّ الكُتَّاب قد تركوا تفقّد هذا من أنفسهم، وخلَّطُوا فيه؛ فليس يفرقون بين من يكتب إليه فَرَأْيَكَ في كذا وبين من يكتب إليه فإنْ رأيت كذا، ورأيك إنما يُكتبُ بها إلى الأكفاء والمساوين، لا يجوز أن يكتب بها إلى الرؤساء والأستاذين؛ لأن فيها معنى الأمر، ولذلك نُصِبَتْ، ولا يُفَرِّقون بين من يكتب إليه وأنا فعلتُ ذلك وبين من يكتب إليه ونحن فعلنا ذلك، ونحن لا يكتب بها عن نفسه إلا آمرٌ أو ناهٍ؛ لأنها من كلام الملوك والعظماء"[21] اهـ

أوليفر:

---

[20] أدب الكاتب، ابن قتيبة
[21] نفس المصدر السابق

هذا يتطلّب منه فطنة وثقافة واسعة، بل وفهما دقيقا لطبيعة الحياة

الأرض:

أحسنت... فـ"**العلم مبدأه العقل، وهو قوة الفهم. وتمامه قوة المنطق الذي هو البيان والعبارة.**"[22] وكما قيل "**عقل الرجل مدفون تحت لسانه**"، وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: **يُسْتَدَلُّ عَلَى عَقْلِ الرَّجُلِ بِقَوْلِهِ**، وَعَلَى أَصْلِهِ بِفِعْلِهِ[23]... فالذي يُعبّر بمثل ذلك البيان، لا يمكن إلا أن يكون فاهما لطبيعة الحياة ولطبيعة البشر... عالما بكيفية التعامل معهما... يعلم أسباب الأحداث، ويعلم كيف تُعالج... كما أنّه يعرف كيف ينال مُراده وكيف يُقبل اعتذاره... فمن كان هكذا **عاش هو والمجتمع في راحة**... لهذا يجب على المرء عموما أن يُغذي عقله وروحه بالبيان الحسن من علم نافع، وحكمة مستحسنة، وغيره... كانت العجم تقول: " من لم يكن عالماً بإجراء المياه، وحَفْر فُرَضِ المشارب، ورَدْم المهاوي، ومجاري الأيام في الزيادة والنقص، ودَوَران الشمس، ومطالع النجوم، وحال القمر في استهلاله وأفعاله، ووزن الموازين، وذَرْع المثلث والمربَّع والمختلف الزوايا، ونَصْب القناطر والجسور والدَّوالي والنَّواعير على المياه، وحال أدوات الصُّنَّاع ودقائق الحساب، كان ناقصاً في حال كتابته "[24].

---

22 اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية

23 أدب الدنيا والدين، الماوردي

24 أدب الكاتب، ابن قتيبة

زاد ابن قتيبة على ذلك فقال: "ولا بد له - مع ذلك - من النظر في جُمل الفقه، ومعرفة أصوله: من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته، كقوله: البيِّنة على المدعي واليمين على المدعى عليه، والخَرَاجُ بالضمان، وجُرْح العَجْماء جُبَار، ولا يَغلقُ الرهنُ، والمنحة مردودة، والعارية مؤدَّاة، والزّعيم غارم، ولا وصية لوارث، ولا قطع في ثَمَر ولا كَثَرٍ، ولا قَوَدَ إلا بحديدة، والمرأة تُعاقلُ الرَّجُل إلى ثُلث الدية، ولا تَعقلُ العاقلةُ عمداً ولا عبداً ولا صلحاً ولا اعترافاً، ولا طلاق في إغلاق، والبَيِّعَان بالخيار ما لم يتفرَّقا، والجار أحقُّ بصَقَبه، والطلاقُ بالرجال، والعدَّة بالنساء، وكنهيه في البيوع عن المخابرة والمُحاقلة والمُزابنة والمُعاوَمَة والثُّنْيا، وعن ربح ما لم يُضمن، وبيع ما لم يُقبض، وعن بَيْعَتَيْن في بَيْعة، وعن شرطين في بيع، وعن بيع وسَلَف، وعن بيع الغَرَر وبيع المُواصفة، وعن الكالئ بالكالئ، وعن تلقّي الركبان، في أشباه لهذا كثيرة، إذا هو حفظها، وتفهَّم معانيها وتدبَّرها، أغْنَتْه بإذن الله تعالى عن كثير من إطالة الفقهاء.

ولا بدَّ له - مع ذلك - من دراسة أخبار الناس، وتحفّظ عيون الحديث؛ ليدخلها في تضاعيف سطوره متمثلاً إذا كتب، ويَصِلَ بها كلامه إذا حَاوَر."[25] اهـ

وقال ابن عبد البر:

---

[25] نفس المصدر السابق

" فإن أولى ما عني به الطالب، ورغب فيه الراغب، وصرف إليه العاقل همّه، وأكّد فيه عزمه، **بعد الوقوف على معاني السنن والكتاب**، مطالعة فنون الآداب، وما اشتملت عليه وجوه الصواب، من أنواع الحكم التي **تحُيي النفس والقلب، وتشحذ الذهن واللب، وتبعث على المكارم، وتنهى عن الدنايا والمحارم**، ولا شيء أنظم لشمل ذلك كله، وأجمع لفنونه، وأهدى إلى عيونه، وأعقل لشارده، وأثقف لنادره؛ من تقييد الأمثال السائرة، والأبيات النادرة، والفصول الشريفة، والأخبار الظريفة، من حكم الحكماء، وكلام البلغاء العقلاء: من أئمة السلف، وصالحي الخلف، الذين امتثلوا في أفعالهم وأقوالهم، آداب التنزيل، ومعاني سنن الرسول، ونوادر العرب وأمثالها، وأجوبتها ومقاطعها، ومباديها وفصولها، وما حووه من حكم العجم، وسائر الأمم، **ففي تقييد أخبارهم، وحفظ مذاهبهم، ما يبعث على امتثال طرقهم واحتذائها، واتباع آثارهم واقتفائها.**

وقد جمعت في كتابي هذا من الأمثال السائرة، والأبيات النادرة، والحكم البالغة، والحكايات الممتعة في فنون كثيرة وأنواع جمة، من معاني الدين والدنيا، ما انتهى إليه حفظي ورعايتي، وضمته روايتي وعنايتي، ليكون لمن حفظه ووعاه، وأتقنه وأحصاه **زيناً في مجالسه، وأنساً لمجالسه، وشحذاً لذهنه وهاجسه**، فلا يمر به معنى في الأغلب مما يذاكر به، إلا أورد فيه بيتاً نادراً، أو مثلاً سائراً، أو حكاية مستطرفة، أو حكمة مستحسنة،

يحسن موقع ذلك في الأسماع، ويخفف على النفس والطباع، ويكون لقارئه أنساً في الخلاء، كما هو زين له في الملاء، وصاحباً في الاغتراب، كما هو حلي بين الأصحاب."[26] اهـ

وقال ابن الجوزي:

"فإن أجل الأشياء موهبة العقل ، فإنَّه الآلة في تحصيل معرفة الإله، وبه تضبط المصالح وتلحظ العواقب، وتُدرك الغوامض وتُجمع الفضائل. ولما **كان العقلاء يتفاوتون في موهبة العقل، ويتباينون في تحصيل ما يثقفه من التجارب والعلم**، أحببت أن أجمع كتاباً في أخبار الأذكياء الذين قويت فطنتهم، وتوقد ذكاؤهم، لقوة جوهرية عقولهم، وفي ذلك ثلاثة أغراض:

أحدها : معرفة أقدارهم بذكر أحوالهم

والثاني : **تلقيح ألباب السامعين** إذا كان فيهم نوع استعداد لنيل تلك المرتبة، وقد ثبت أن رؤية العاقل ومخالطته تفيد ذا اللُّب، **فَسَماعُ أخباره تقوم مقام إخباره**، كما قال الرضي :

فَاتَنِي أَنْ أَرَى الدِّيَارَ بِطَرْفِي... فَلَعَلِّي أَرَى الدِّيَارَ بِسَمْعِي

وقد أنبأنا جماعة من أشياخنا، قالوا : أخبرنا مضر بن محمد، قال : سمعت يحيى بن أكثم، يقول : سمعت المأمون يقول لإبراهيم : لا شيء أطيب من النظر في عقول الرجال.

---

[26] بهجة المجالس وأنس المجالس، ابن عبد البر

والثالث : تأديب المُعْجَبِ برأيه إذا سمع أخبار من يَعْسر عليه لَحَاقُه ؛ والله الموفق ."[27] اهـ

آرثر:
أسمعت يا ليو؟... عليك أن تُشمّر عن ساعديك وتقرأ وتحفظ كثيرا

ليو:
إذا كانت النتيجة أن يرتقي بياني وذوقي، ويقوى عقلي وروحي، فالثمن إذا زهيد

الأرض:
أحسنت الإجابة يا ليو... فكما قَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: **خَيْرُ الْمَوَاهِبِ الْعَقْلُ**، وَشَرُّ الْمَصَائِبِ الْجَهْلُ.
وَقَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ، وَهُوَ إبْرَاهِيمُ بْنُ حَسَّانَ:
يَزِينُ الْفَتَى فِي النَّاسِ صِحَّةُ عَقْلِهِ ... وَإِنْ كَانَ مَحْظُورًا عَلَيْهِ مَكَاسِبُهْ
يَشِينُ الْفَتَى فِي النَّاسِ قِلَّةُ عَقْلِهِ ... وَإِنْ كَرُمَتْ أَعْرَاقُهُ وَمَنَاسِبُهْ
يَعِيشُ الْفَتَى بِالْعَقْلِ فِي النَّاسِ إنَّهُ ... عَلَى الْعَقْلِ يَجْرِي عِلْمُهُ وَتَجَارِبُهْ
وَأَفْضَلُ قَسْمِ اللَّهِ لِلْمَرْءِ عَقْلُهُ ... فَلَيْسَ مِنْ الْأَشْيَاءِ شَيْءٌ يُقَارِبُهْ

[27] أخبار الأذكياء، ابن الجوزي

إذَا أَكْمَلَ الرَّحْمَنُ لِلْمَرْءِ عَقْلَهُ ... فَقَدْ كَمُلَتْ أَخْلَاقُهُ وَمَآرِبُهْ[28]

"**فبالعقل تعمر القلوب** كما أن بالعلم تستخرج الأحلام وعمود السعادة العقل ورأس الاختيار، **ولو صُوِّر العقل صورة لأظلمت معه الشمس لنوره** فقرب العاقل مرجو خيره على كل حال كما أن قرب الجاهل مخوف شره على كل حال."[29] اهـ

"وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: إنَّ الْعَاقِلَ مَنْ عَقْلُهُ فِي إرْشَادٍ، وَمَنْ رَأْيُهُ فِي إمْدَادٍ، **فَقَوْلُهُ سَدِيدٌ، وَفِعْلُهُ حَمِيدٌ**، وَالْجَاهِلُ مَنْ جَهْلُهُ فِي إغْوَاءٍ، وَمَنْ هَوَاهُ فِي إغْرَاءٍ، فَقَوْلُهُ سَقِيمٌ، وَفِعْلُهُ ذَمِيمٌ."[30] اهـ

اسمعوا ما حَكَاه الْأَصْمَعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - قَالَ: قُلْت لِغُلَامٍ حَدَثٍ مِنْ أَوْلَادِ الْعَرَبِ كَانَ يُحَادِثُنِي فَأَمْتَعَنِي بِفَصَاحَةٍ وَمَلَاحَةٍ: أَيَسُرُّكَ أَنْ يَكُونَ لَك مِائَةُ أَلْفِ دِرْهَمٍ، وَأَنْتَ أَحْمَقُ؟ قَالَ: لَا وَاَللَّهِ. قَالَ: فَقُلْت: وَلِمَ؟ قَالَ: أَخَافُ أَنْ يَجْنِيَ عَلَيَّ حُمْقِي جِنَايَةً تَذْهَبُ بِمَالِي وَيَبْقَى عَلَيَّ حُمْقِي. **فَانْظُرُوا إلَى هَذَا الصَّبِيِّ كَيْفَ اسْتَخْرَجَ بِفَرْطِ ذَكَائِهِ، وَاسْتَنْبَطَ بِجَوْدَةِ قَرِيحَتِهِ مَا لَعَلَّهُ يَدِقُّ عَلَى مَنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ سِنًّا، وَأَكْثَرُ تَجْرِبَةً.**

---

[28] أدب الدنيا والدين، الماوردي
[29] روضة العقلاء، ابن حبان
[30] أدب الدنيا والدين، الماوردي

وَأَحْسَنُ مِنْ هَذَا الذَّكَاءِ وَالْفَطِنَةِ مَا حَكَاه ابْنُ قُتَيْبَةَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مَرَّ بِصِبْيَانٍ يَلْعَبُونَ وَفِيهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ فَهَرَبُوا مِنْهُ إلَّا عَبْدَ اللَّهِ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: مَا لَك؟ لِمَ لَا تَهْرَبُ مَعَ أَصْحَابِك؟ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ أَكُنْ عَلَى رِيبَةٍ فَأَخَافُك، وَلَمْ يَكُنْ الطَّرِيقُ ضَيِّقًا فَأُوَسِّعُ لَك. **فَانْظُرْوا مَا تَضَمَّنَهُ هَذَا الْجَوَابُ مِنْ الْفِطْنَةِ وَقُوَّةِ الْمِنَّةِ وَحُسْنِ الْبَدِيهَةِ.** كَيْفَ نَفَى عَنْهُ اللَّوْمَ، وَأَثْبَتَ لَهُ الْحُجَّةَ فَلَيْسَ لِلذَّكَاءِ غَايَةٌ، وَلَا لِجُودَةِ الْقَرِيحَةِ نِهَايَةٌ."

قد أحسن الذي قال:

رَأَيْتُ الْعِزَّ فِي أَدَبٍ وَعَقْلٍ ... وَفِي الْجَهْلِ الْمَذَلَّةُ وَالْهَوَانُ
وَمَا حُسْنُ الرِّجَالِ لَهُمْ بِحُسْنٍ ... إذَا لَمْ يُسْعِدْ الْحُسْنَ الْبَيَانُ
كَفَى بِالْمَرْءِ عَيْبًا أَنْ تَرَاهُ ... لَهُ وَجْهٌ وَلَيْسَ لَهُ لِسَانُ[31]

نعم بالأدب والعقل عزّ أقوام وارتفع شأنهم... فمنهم من رفعه في الصِّغَر وقدّمه على الكبير، كغلام الحجاز

لما استخلف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، قدم عليه وفد أهل كل بلد، فتقدم إليه وفد أهل الحجاز، فاشرأبّ منهم غلام للكلام، فقال عمر: يا غلام، ليتكلّم من هو أسنّ منك! فقال الغلام:

[31] نفس المصدر السابق

يا أمير المؤمنين! **إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه**، فإذا منح الله عبده لسانا لافظا، وقلبا حافظا، فقد أجاد له الاختيار، ولو أن الأمور بالسنّ لكان هاهنا من هو أحقّ بمجلسك منك.

فقال عمر: صدقت، تكلم، فهذا السحر الحلال! فقال: يا أمير المؤمنين، نحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة، ولم تُقْدِمْنا إليك رغبة ولا رهبة، لأنّا قد أمنّا في أيامك ما خفنا، وأدركنا ما طلبنا! فسأل عمر عن سنّ الغلام، فقيل: **عشر سنين.**[32]

الأولاد:

عشر سنين!!!

الأرض:

نعم... ومنهم من **سَوَّدَه عقلُه وبيانُه على قومه** مع ما فيه من عيوب كثيرة في خَلْقه كالأحنف بن قيس... شُهر بالأحنف لحنف في رجله، وكان أعور، دميما قصيرا كوسجا له بيضة واحدة ، حبسه عمر سنة يختبره فقال: **هذا والله السيد.**[33]

---

[32] زهر الآداب وثمر الألباب، الحصري القيرواني

[33] سير أعلام النبلاء، الذهبي

بل منهم من خلّدَ ذكرَه اللهُ -عز وجل-، **كلقمان الحكيم**... فلا يُذكر إلا مقترنا بالحكمة... وقد كان عبدا أسود عظيم الشفتين مشقق القدمين...

وهناك من نجّاه بيانه من العقوبة والسجن

الأولاد:

كيف؟

الأرض:

كان يعيش ملك عظيم ذو مال وجاه، وذات ليلة رأى في منامهِ أنّ كلَّ أسنانه قد تكسَّرت وسقطت، فأمرَ بحضور كل مفسِّري الأحلام في البلد ليقفوا بين يديه، وحكى لهم الحُلُم الغريب كما كان! وطلب منهم تفسيره.

فقال المُفسِّرُ الأول: أمتأكدٌ أنتَ مما تقول يا مولاي؟

قال الملكُ : نعم.

فقالَ له المفسِّرُ: هذا معناهُ أنَّ كلَّ أهلكَ سيموتونَ قبلك!

فغضبَ الملك وتغيَّرَ وجههُ وأمر على الفور بسجن هذا المفسر!

ثم جاء بمفسِّرٍ أخرَ وقصَّ عليه الحُلُم، فقال له المفسر الثاني نفس كلام المفسر الأول.

فما كان من الملك إلاّ أن سجنَهُ أيضا!
بعد ذلك جاؤوهُ بمفسّرٍ ثالثٍ للرؤى والأحلام، لكنهُ كان يملك فن البلاغة وأكثر وعياً وأبعدَ إدراكاً وفهماً، فلمّا قصَّ عليه الملكُ الحلُمَ كما هو.
قال المفسّرُ: إن كان كما تقولُ يا مولاي، فهنيئاً لكَ هذا الحلُمَ الجميل!
تعجَّبَ الملك وسأله: لماذا؟!
فقال المفسّرُ مسروراً مزهوّاً: تأويلُ حُلُمِكَ يا سيدي **أنّكَ ستكونُ أطولَ أهلكَ عُمراً!! وسيمدُّ اللهُ لكَ في عُمُرك وملكك سنين طويلة!.**
ففرح الملكُ وأكرمه وأجزلَ لهُ في العطاء!

أوليفر:
هذا ذكي منه!

الأرض:
نعم... فإنه لم يُغيّر سوى الأسلوب وإلا فالمعنى واحد... لكن ذلك أسعد الملك وأنقذه...

وأُتِي المنصور برجل ليعاقبه على شيء بلغه عنه ، فقال له : يا أمير المؤمنين ! الانتقام عدل ، والتجاوز فضل ، ونحن نعيذ أمير المؤمنين بالله أن يرضى لنفسه بأوكس النصيبين دون أن يبلغ أرفع الدرجتين ؛ فعفا عنه[34]

وهناك من أنقذه عقلهُ وبيانُه من الموت حقيقة لعلمه برقي ذوق القوم...
وقال عمرُو بنُ مَعْدِيكَرِب :
خرجت يوماً حتى انتهيت إلى حي ، فإذا بفرس مشدودة ، ورمح مركوز؛ وإذا صاحبه في وَهْدَةٍ يقضي حاجته، فقلت له : خُذْ حِذْرَك فَإِنّي قاتلك، قال : ومَن أنت ؟ قال : أنا عَمْرو بن مَعْدِيكَرِب ، قال : يا أبا ثور ! ما أنصفتني؛ أنت على ظهر فرسك وأنا في بئر، فأعطني عهداً أنك لا تقتلني حتى أركب فرسي وآخذ حذري؛ فأعطيته عهداً ألا أقتله حتى يركب فرسه ويأخذ حذره، فخرج من الموضع الذي كان فيه حتى احتبى بسيفه وجلس، فقلت : ما هذا ؟
قال : ما أنا براكب فرسي ولا مقاتلك ، فإن نكثت عهداً فأنت أعلم؛ فتركته ومَضَيْتُ ؛ فهذا أحيل من رأيت[35]
(الأرض): تركه لذوقه الراقي وتقديره لعقل الرجل

---

34 الأذكياء، ابن الجوزي
35 أخبار الأذكياء، ابن الجوزي

آرثر:
هذا سحر!

الأرض:
السّحر الحلال... قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: "إن من البيان لسحرا"[36]
ولهذا تُنْفقُ الشركات الأموالَ الضخمة في الإعلانات والتسويق، حتى تؤثر على المستهلك وتحثه على الشراء

ليو:
صحيح... لقد اشتريت أشياء ما كنت أحتاجها

الأرض:
ولا تقف فائدة البيان الشريف على إنقاذ صاحبه، بل إنقاذ قومه وبلده... فكم من جَيْش ثبّتَ قلبه وقوّى عزيمته ورفع من معنوياته، كلمةٌ حماسيّة من قائده، لولاها لفشل واستسلم

[36] صحيح البخاري

وهكذا في جميع ما يُحمّس فيه من نجاح في دراسة أو رياضة أو غيره...
وبالمناسبة، كم من معركة حربية أو رياضية أو غيرهما، أُنْهزِم فيها الجيش أو الفريق الأكثر عددا وعدّة، لأنّه كان في مُواجهة عقْل فذّ...
لهذا قال ابن قُتيبة: " **ومدارُ الأمر على القُطْب، وهو العقل وجَوْدة القريحة**، فإن القليل معهما بإذن الله كاف، والكثير من غيرهما مقصِّر."[37]

ومع ما فيه أيضا من امتاع جليسه وتسليته، وادخال السرور في نفسه، وغيره من المصالح... قال خالد بن صفوان لرجل: رحم الله أباك، فإنّه كان يُقْرِي العين جمالا، والأذن بيانا.[38]

آرثر:
يعني يحتاجها كل أحد

الأرض:
بالتّأكيد!... لكن انتبهوا يا أبنائي!... فكما أنّ البيان واللسان يسودُك، ويُنجيك... فقد يُهلكك ويُمحيك

---

37 أدب الكاتب، ابن قتيبة
38 البيان والتبيين، الجاحظ

قال الشاعر:

يموت الفتى من عثرة بلسانه ... وليس يموت المرء من عثرة الرِّجْل

فعثرته من فيه ترمي برأسه ... وعثرته بالرِّجْل تبرا على مهل

وقال الشافعي:

اِحفَظ لِسانَكَ أَيُّها الإِنسانُ

لا يَلدَغَنَّكَ إِنَّهُ ثُعبانُ

كَم في المَقابِرِ مِن قَتيلِ لِسانِهِ

كانَت تَهابُ لِقاءَهُ الأَقرانُ

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: مَقْتَلُ الرَّجُلِ بَيْنَ فَكَّيْهِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْأُدَبَاءِ: يَا رُبَّ أَلْسِنَةٍ كَالسُّيُوفِ تَقْطَعُ أَعْنَاقَ أَصْحَابِهَا.

آرثر:

أي كالسّيف ذي حدّين

الأرض:

نعم...و كما أنه يُمتع جليسه ويُفرحه... فقد يُؤذيه ويجرحه

قال الشاعر:

وقد يرجى لجرح السيف برء ... **وجرح الدهر ما جرح اللسان**

جراحات السنان لها التئام ... **ولا يلتإم ما جرح اللسان**

قال لقمان رحمه الله تعالى: "إنّ مِنَ الكَلامِ ما هو أشدُّ مِن الحَجَرِ في وَقْعِهِ، وأنفذُ مِنْ وَخْزِ الإبرِ، وأَمَرُّ مِنَ الصبرِ، وأحرُّ مِنَ الجَمْرِ".

فكم من أب أو أمّ آذت ولدها بكلمة جارحة لم تلق لها بالا ولكنّها كانت وبالا على ولدها، فمنهم من أوصلته إلى إدمان الكحول، والآخر إلى المخدّرات...

وكم من زوج آذى زوجته، وكم من زوجة آذت زوجها...

وكم من أستاذ آذى تلميذه...

وكم من زميل آذى زميله...

وكم من شخص آذى شخصا...

قد يصل الألم والأذى إلى حمل صاحبه على الانتحار...

فما سبب كثير من الشقاء، والحزن، والهم، والتقاطع، وأمراض نفسية... كلمةٌ جارحة، وإن كانت عن غير قصد.

لهذا قال النبيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم قَالَ: "إنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالى مَا يُلقِي لهَا بَالاً يَرْفَعُهُ اللَّه بهَا دَرَجاتٍ، وَإنَّ الْعبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ تَعالى لا يُلْقي لهَا بَالاً يهوي بهَا في جَهَنَّم"[39]

وقال صلى الله عليه وسلم لأَبي مُوسَى رضي الله عَنْهُ عندما سأله فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ أيُّ المُسْلِمِينَ أفْضَلُ؟ قَالَ: "مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِن لِسَانِهِ وَيَدِهِ"[40].

وقَالَ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم أيضا: "مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بيْنَ رِجْلَيْهِ أضْمَنْ لهُ الجَنَّة"[41].

وقَال سُفْيان بن عبْد اللَّهِ رضي اللَّه عنْهُ : قُلْتُ يَا رسُولَ اللَّهِ حَدِّثني بأمْرٍ أعْتَصِمُ بِهِ قالَ:" قُلْ ربِّي اللَّه، ثُمَّ اسْتَقِمْ"قُلْتُ: يَا رسُول اللَّهِ مَا أَخْوفُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ؟ فَأَخَذَ بِلِسَانِ نَفْسِهِ، ثُمَّ قَال:"هَذَا"[42].

وقَالَ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم أيضا: "لَيْس المُؤْمِنُ بالطَّعَانِ، وَلا اللَّعَّانِ، وَلا الْفَاحِشِ، وَلا الْبَذِيء "[43]

---

39 البخاري
40 متفق عليه
41 نفس المصدر السابق
42 رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح
43 رواه الترمذي وقال حديث حسن

وقال صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم: "مَا كَانَ الْفُحْشُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ شانَهُ، ومَا كَانَ الحَيَاءُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ"[44]

وقال سيدُ لقمان مرّة للقمان: اذبح لي شاة ، قال : فذبح له شاة فقال : ائتني بأطيبها مضغتين ، فأتاه **باللسان والقلب** ، قال : فقال : ما كان فيها شيء أطيب من هذين ؟ قال : لا ، فسكت عنه ما سكت ، ثم قال : اذبح لي شاة ، فذبح له شاة قال : ألق أخبثها مضغتين ، فألقى اللسان والقلب ، فقال له : قلت لك ائتني بأطيبها ، فأتيتني باللسان والقلب ، ثم قلت لك : ألق أخبثها مضغتين ، فألقيت اللسان والقلب ، قال : **ليس شيء أطيب منهما إذا طابا ولا أخبث منهما إذا خبثا.**[45]

فعوِّدوا ألسنتكم على الخير وما يعود عَلَيْكم نفعه، لأن اللسان يقتضي مَا عُوِّد، إن صدقا فصدقا، وإن كذبا فكذبا

ولقد أحسن الذي يقول ...

عوِّد لسانك قول الخير تحظ به ... **إن اللسان لما عودت معتاد**

موكل بتقاضي مَا سننت له ... فاختر لنفسك وانظر كيف ترتاد[46]

آرثر:

---

[44] نفس المصدر السابق
[45] المصنّف، ابن أبي شيبة
[46] روضة العقلاء، ابن حبان

حقا كلامك كلّه صدق وواقعي!

الأرض:

صدق النبي محمد -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم- إذ قَالَ: "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ **فَليَقُلْ خَيْراً، أَوْ ليَصْمُتْ**"[47]

آرثر:

نعم

الأرض:

السر في حسن اختيارك للكلام وعدم إيذاء السامع، هو **أن تضع نفسك مكانه، فكما تُريد أن يُخاطبك الناس فخاطبهم به**... قال رسولُ اللَّه صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم: "مَنْ أحبَّ أنْ يُزَحْزحَ عَنِ النَّارِ، ويَدْخَل الجنَّةَ، فلتَأتِه منِيَّتُه وهُوَ يُؤمِنُ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ، **وَلْيَأتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ**"[48]

---

[47] متفق عليه

[48] رواه مسلم

وأن يكون **كلامك صادقا خالصا، مُريدا لهم الخير بغير مُقابل**، فقد قيل: "ما خرج من القلب وصل إلى القلب، وما خرج من اللسان لا يتجاوز الآذان".

وقال النبي -صلى الله عليه وسلّم- : "ازهد في الدنيا يحبك الله، **وازهد فيما عند الناس يحبك الناس**"[49]

وقال -صلى الله عليه وسلم- : "إنَّ الرِّفقَ لا يَكونُ في شَيءٍ إلَّا زانَه، ولا يُنزَعُ مِن شَيءٍ إلَّا شانَه."[50]

وقد أكّد الله -عز وجل- على حسن الكلام عند الدعوة فقال تعالى ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل ١٢٥]

ليو:

يعني القيم هي المعاني، والبيان هو الأسلوب...

الأرض:

---

[49] حديث حسن، رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة

[50] صحيح مسلم

تقريبا... فضائل البيان الشريف يا أولادي والذوق الراقي لا تقف على الكلام، بل تتجاوزه في أمور كثيرة، كما أنّ للبيان القبيح والذوق الفاسد أضرار كثيرة...

فما ترونه من تصاميم ولوحات قبيحة فارغة من المعاني إلا بسبب ما تشرّبت نَفْسُ مُصمّمها من البيان القبيح وفساد ذوقه... فالبيوت والعمارة سُلخت من روحها ومعناها... كذلك الملابس والزينة وأشياء كثيرة... فأضروا من حيث أرادوا أن ينفعوا... بل بفساد أفكارهم وذوقهم، قلّت اختراعاتهم المفيدة النافعة ، وكثرت اختراعاتهم المضرّة الفاسدة ...

أمّا صاحب البيان الشريف والذوق الراقي...يخترع ما هو مفيدا نافعا، ويُودع الروح في تصاميمه الجميلة بما تُناسب معانيها... **جاعلا الطبيعة ميزانه والخالق مُعلّمه... فالخالق خلق الكون بالحقّ، فأتقن صنعه، وقدّر كلّ شيء بمقدار، وزيّنه فأمتع الأبصار**... قال تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة ٢٩]

وقال تعالى ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ (3)﴾ [النحل]

وقال تعالى ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ (5) وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ (6) وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ

لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ (7) وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ (8)﴾ [النحل]

وقال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ (10) يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ (11) وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ (12) وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ (13) وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ (14) وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ (15) وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ (16) أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (17) وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ (18)﴾ [النحل]

وقال تعالى ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا (2)﴾[الفرقان]

وقال تعالى ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ (49)﴾ [القمر]

وقال تعالى ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (2) وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ (3)﴾ [الأعلى]

وقال تعالى ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ (4)﴾ [التين]

وقال تعالى ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ (88)﴾ [النمل]
وقال تعالى ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ (6)﴾ [الصافات]
فالله -سبحانه وتعالى- كما قال عنه النبي -صلى الله عليه وسلم-: "إنّ الله جميل يُحبّ الجمال"[51]

وهكذا اتخذ العباقرة العقلاء الطبيعة ميزانا ونموذجا لهم
قال ليوناردو دافنشي: "في أنه لا ينبغي للرسّام أن يقلّد غيره تقليدًا أعمى

لا ينبغي للرسّام أبدًا أن يتعلّق بطريقة رسّامٍ آخر تعلّقًا عبوديًّا، لأنه لا ينبغي له أن يصوّر أعمال الناس، **بل أعمال الطبيعة؛ والطبيعة — فضلًا عن ذلك — غزيرةٌ خصبةٌ في إنتاجها**، حتى ينبغي الرجوع إليها نفسها قبل الرجوع إلى **الرسّامين الذين ليسوا إلا تلاميذ لها**، والذين لا يقدّمون إلا صورًا عن الطبيعة أقلَّ جمالًا، وأضعفَ حياةً، وأقلَّ تنوّعًا من تلك التي تمنحها هي بنفسها حين تعرض نفسها أمام أعيننا."[52]اهـ

وقال سقراط: "س : **فحسن البيان وصحة الوزن والجزالة والإيقاع كافةً تتوقف على الطبيعة الصالحة، ولا أقصد بها السذاجة التي مجاملةً ندعوها**

---

[51] صحيح مسلم
[52] رسالة في فنّ الرسم

طبيعةً صالحة، بل أقصد بها العقل السليم سلامةً حقيقيةً، تجلَّتْ سلامته في السجية الأدبية الشريفة.

غ : حتمًا هكذا.

س : أفلا يجب أن يتصف شُبَّاننا بهذه الخِلال في كل حال إذا كُنَّا نروم أن يُتمُّوا عملهم الخاص؟

غ : بلى، يجب أن يتصفوا بها.

س : وأظن أن **هذه المزايا تدخل إلى حدٍّ بعيد في فن النقش، وفي كل الفنون التي تُحاكيه كالحياكة والتطريز والبناء، والصنائع المُنَوَّعة بمُختلف الآلات، بل في بناء الأجسام الحية وكل أنواع النبات**، لأن للرشاقة والمعاظلة دخلًا في كل هذه الأوساط. وفقدان الجزالة والإيقاع واللحن حليف الأسلوب الفاسد والخُلُق الرديء. أما وجودها فحليف الخُلُق الحميد، أي الشجاعة والرزانة وإعلان له.

غ : مُصيبٌ كل الإصابة."[53] اهـ

أوليفر:

واو!... أإلى هذا الحد؟

[53] الجمهورية، أفلاطون

الأرض:

بلى... لأنّ النفس إذا اعتدلت، اعتدلت أفكارها، وحسنت ثمارها... كالأرض الطيبة، سُقيت طيّبا، فأثمرت طيّبا... أمّا إذا فسقت وخرجت عن العدول، مرضت، وهلكت ثمارها، كالأرض الخبيثة

قال تعالى ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ (58)﴾ [الأعراف]

ليو:

لهذا قلت لكم أريد تعلم البيان الجميل

آرثر:

ليو..أنت لم تكن تعلم بهذا... أنت تُريد أن تُمتع أذني حبيبتك

ضحك الجميع

الأرض:

فهل يُعقل أن يكون هذا كلّه، وهذا الاتصال الوثيق بين النفس والجسد والطبيعة... صدفة؟! بدون خالق عليم خبير حكيم؟!!

الأولاد:

مُستحيل

الأرض:

ألا يدل هذا على مصداقيّة القرآن ومصداقية مصدره من الخالق؟

الأولاد:

بلى

الأرض:

بل لهذه الأمور التي ذكرناها كلّها أنزل الله -عز وجل- القرآن... لكن قبل الحديث عن هذا أريد أن أذكر لكم سرا آخر مهما عن النفس والبيان...من غفل عنه أتعب نفسه وعقله... إلى المحطة التالية والسر التالي... النفس إذا أخذتها بالجد طيلة الوقت ملّت وتركت، ولكن شيئا فشيئا

قال النبي -صلى الله عليه وسلم- : "إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، **وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وقَارِبُوا، وأَبْشِرُوا**، واسْتَعِينُوا بالغَدْوَةِ والرَّوْحَةِ وشيءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ."[54]

[54] صحيح البخاري

وكانَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَحْتَجِرُ حَصِيرًا باللَّيْلِ فيُصَلِّي عليه، ويَبْسُطُهُ بالنَّهَارِ فيَجْلِسُ عليه، فَجَعَلَ النَّاسُ يثُوبُونَ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيُصَلُّونَ بصَلَاته حتَّى كَثُرُوا، فأقْبَلَ فقَالَ: يا أيُّها النَّاسُ، خُذُوا مِنَ الأعْمَالِ ما تُطِيقُونَ، **فإنَّ اللَّهَ لا يَمَلُّ حتَّى تَمَلُّوا**، وإنَّ أحَبَّ الأعْمَالِ إلى اللَّهِ ما دَامَ وإنْ قَلَّ.[55]

قال عبد الله: قَالَ لي رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: يا عَبْدَ اللَّهِ، ألَمْ أُخْبَرْ أنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ، وتَقُومُ اللَّيْلَ؟، فقُلتُ: بَلَى يا رَسولَ اللَّهِ قَالَ: فلا تَفْعَلْ صُمْ وأَفْطِرْ، وقُمْ ونَمْ، **فإنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وإنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وإنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وإنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا**، وإنَّ بحَسْبِكَ أنْ تَصُومَ كُلَّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أيَّامٍ، فإنَّ لكَ بكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أمْثَالِهَا، فإنَّ ذلكَ صِيَامُ الدَّهْرِ كُلِّهِ، فَشَدَّدْتُ، فَشُدِّدَ عَلَيَّ قُلتُ: يا رَسولَ اللَّهِ إنِّي أجِدُ قُوَّةً قَالَ: فَصُمْ صِيَامَ نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ عليه السَّلَامُ، ولَا تَزِدْ عليه، قُلتُ: وما كانَ صِيَامُ نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ عليه السَّلَامُ؟ قَالَ: نِصْفَ الدَّهْرِ، **فكانَ عبدُ اللَّهِ يقولُ بَعْدَ ما كَبِرَ: يا لَيْتَنِي قَبِلْتُ رُخْصَةَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ.**[56]

وورثت الأنبياء قد سلكوا هذا المسلك نفسه مع أنفسهم

---

[55] صحيح البخاري
[56] صحيح البخاري

فكانَ عبدُ اللَّهِ يُذَكِّرُ النَّاسَ في كُلِّ خَمِيسٍ فقالَ له رَجُلٌ: يا أبا عبدِ الرَّحْمَنِ لَوَدِدْتُ أنَّكَ ذَكَّرْتَنا كُلَّ يومٍ؟ قالَ: أما إنَّه يَمْنَعُنِي مِن ذلكَ أنِّي أكْرَهُ أنْ أُمِلَّكُمْ، وإنِّي أتَخَوَّلُكُمْ بالمَوْعِظَةِ، كما **كانَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَتَخَوَّلُنا بها، مَخافَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنا.**[57]

وقال ابن الجوزي:

"وعن حنظلة الكاتب أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الجنة والنار وكنا كأن رأينا رأي عين، فخرجت يوماً فأتيت أهلي فضحكت معهم فوقع في نفسي شيء، فلقيت أبا بكر فقلت: إني قد نافقت، قال: وما ذاك؟ قلت: كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فذكر الجنة والنار فكنا كأن رأينا رأي عين، فأتيت أهلي فضحكت معهم. فقال أبو بكر: إنا لنفعل ذلك. فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال: " يا حنظلة لو كنتم عند أهليكم كما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي الطريق، يا حنظلة ساعة وساعة ".

وقال علي بن أبي طالب: **روحوا القلوب واطلبوا لها طرف الحكمة فإنها تمل كما تمل الأبدان.**

---

[57] صحيح البخاري

وقال أيضاً: إن هذه القلوب تمل كما تمل الأبدان فالتمسوا لها من الحكمة طرفاً.

وعن أسامة بن زيد قال: روحوا القلوب تعي الذكر.

وعن الحسن قال: إن هذه القلوب تحيى وتموت فإذا حييت فاحملوها على النافلة، وإذا ماتت فاحملوها على الفريضة.

وعن الزهري، قال: كان رجل يجالس أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحدثهم، فإذا كثروا وثقل عليهم الحديث، قال: " إن الأذن مجاجة، وإن القلوب حمضة، فهاتوا من أشعاركم وأحاديثكم ".

وقال أبو الدرداء: إني لأستجم نفسي ببعض الباطل كراهية أن أحمل عليها من لحق ما يكلها.

وعن محمد بن إسحاق قال: كان ابن عباس إذا جلس مع أصحابه حدثهم ساعة ثم قال حمضونا، فيأخذ في أحاديث العرب ثم يعود يفعل ذلك مراراً.

وعن الزهري أنه كان يقول لأصحابه: هاتوا من أشعاركم هاتوا من حديثكم فإن الأذن مجة والقلب حمض.

وقال ابن إسحاق: كان الزهري يحدث ثم يقول: هاتوا من ظرفكم هاتوا من أشعاركم، أفيضوا في بعض ما يخفف عليكم وتأنس به طباعكم فإن الأذن مجاجة والقلب ذو تقلب.

وعن مالك بن دينار قال: كان الرجل ممن كان قبلكم إذا ثقل عليه الحديث قال: إن الأذن مجاجة والقلب حمض فهاتوا من طرف الأخبار.
عن ابن زيد قال: قال لي أبي: إن كان عطاء بن يسار ليحدثنا أنا وأبا حازم حتى يبكينا ثم يحدثنا حتى يضحكنا، ثم يقول: مرة هكذا ومرة هكذا.

قلت (ابن الجوزي): وما زال العلماء والأفاضل يعجبهم الملح، ويهشون لها، لأنها **تجم النفس وتريح القلب من كد الفكر.** وقد كان شعبة يحدث، فإذا رأى المزيد النحوي قال: إنه أبو زيد:
استعجمت دار نعمٍ ما تكلمنا ... والدار لو كلمتنا ذات أخبار
وقد روينا عن ابن عائشة أحاديث ملاحاً في بعضها رفث، وإن رجلاً قال له: أيأتي من مثلك هذا؟ فقال له: ويحك أما ترى أسانيدها؟ ما أحد ممن رويت عنه هو أفضل من جميع أهل زماننا، ولكنكم ممن قبح باطنه فرأى ظاهره، وإن باطن القوم فوق ظاهرهم.
ووصف رجل من النساك عند عبيد الله ابن عائشة فقالوا: **هو جد كله، فقال لقد أضاق على نفسه المرعى،** وقصر طول النهى، ولو فككها بالإنتقال من حال إلى حال لتنفس عنها ضيق العقدة، وراجع الجد بنشاط وحدة.

وعن الأصمعي قال سمعت الرشيد يقول: **النوادر تشحذ الأذهان وتفتق الآذان.**

وعن حماد بن سلمة أنه كان يقول: لا يحب الملح إلا ذكران الرجال ولا يكرهها إلا مؤنثهم.

وعن الأصمعي قال: أنشدت محمد بن عمران التميمي قاضي المدينة وما رأيت في القضاة أعقل منه:

يا أيها السائل عن منزلي ... نزلت في الخان على نفسي

يغدو علي الخبز من خابزٍ ... لا يقبل الرهن ولا ينسي

آكل من كيسي ومن كسوتي ... حتى لقد أوجعني ضرسي

فقال: أكتبه لي، قلت: أصلحك الله إنما يكتب هذا الأحداث، فقال: ويحك أكتبه فإن الأشراف يعجبهم الملاحة.

فصل

فقد بان مما ذكرنا أن **نفوس العلماء تسرح في مباح اللهو الذي يكسبها نشاطاً للجد** **فكأنها من الجد لم تزل**، قال أبو فراس:

أروح القلب ببعض الهزل ... تجاهلاً مني، بغير جهل

أمزح فيه، مزح أهل الفضل ... والمزح، أحياناً، جلاء العقل"[58] اهـ

أوليفر:

[58] أخبار الحمقى والمغفلين

لهذا يقع من يقع في ما يُسمّى بالإحتراق الوظيفي أو النفسي

الأرض:
نعم... حسنا... علمنا مما سبق أنّ النفس تتغذّى، والغذاء منه الصحّي ومنه المُضر... أليس كذلك؟

الأولاد:
بلى

الأرض:
وغذاؤها الصحّي هو كل بيان شريف من حكمة مستحسنة، أو علم نافع، أو غيره من الكلام الحسن... أما البيان القبيح فهو معروف... لكن البيان القبيح أعلق بالقلب وآلف للطبع وأسرع على اللسان منه من الشريف، أليس كذلك؟

الأولاد:
بلى

الأرض:

ورأينا فضل البيان الشريف على صاحبه وعلى المجتمع مثل الغيث ينفع أينما حل، كما رأينا ضرر البيان القبيح على صاحبه وعلى المجتمع... أي أنّ **البيان إذا كان شريفا شرُفت البشريّة وسعدت وسعد معها الحيوان والبر والبحر... أما لو كان البيان فاسدا، شقت البشريّة وتعِست وتعس معها الحيوان والبر والبحر**

الأولاد:
ايه والله

الأرض:
فالخير وسيلته البيان الشريف، والشر وسيلته البيان القبيح... لهذه الأسباب وغيرها أنزل الله -عز وجل- القرآن الكريم... **فهو من لدن عليم حكيم خبير**، ذكر فيه **أحكم الحكم، وأفضل الأمثال، وأحسن القصص، وأنفع العلوم ... وأنزله على أعلى بيان وأرقاه، بل بيان يُعجز البشر على أن يأتوا بمثله**... وهذه نكتة أخرى، إذ جعل الله -عز وجل- آية خاتم أنبيائه محمد -صلى الله عليه وسلم- والذي أرسله للناس كافة ظاهرة قائمة للناس وبتحدّيها لهم إلى قيام الساعة، على عكس سائر الأنبياء، إذ كانت آياتهم لقومهم خاصة ومؤقتة مع فترة نبيّهم...فسبحانه ما أحكمه!... كما أنّه سبحانه وتعالى جعل الآية في أهم شيء للبشريّة ومبدأ خيرها... بل

جعلها في **حياة الروح** نفسها... قال تعالى واصفا القرآن بالروح، وهذا وصف عميق، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ **رُوحٗا** مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ **نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ** مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (52)﴾ [الشورى]

وقال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ (28)﴾ [الرعد]

وقال تعالى مُبينا ثمرة الإيمان والعمل، وأنه بهما ينال المرء الحياة الطيّبة ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ **حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ** وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (97)﴾ [النحل]

وقال النَّبيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم: "مَثَلُ الَّذِي يَذكُرُ ربَّهُ وَالذي لا يذكُرُهُ، مَثَل الحيِّ والمَيِّتِ"[59].

وقال تعالى مبينا ضرر البعد عن هذا ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ **مَعِيشَةٗ ضَنكٗا** وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ (124)﴾ [طه]

تفهمون الآن سبب اضطراب واكتئاب البعيدين عن هذا النور العظيم، بالرغم ما يتمتعون به من متاع الدنيا من مال وجاه وشهرة... وتفهمون الأعمال الشيطانية من بعضهم لموت روحهم

[59] صحيح البخاري

الأولاد:

الآن فهمنا

آرثر:

ممكن تذكرين بعضا من الأمثلة؟

الأرض:

لن تدركوا علوّ بيانه إلا بعد معرفتكم للغته

آرثر:

بأيّ لغة هو؟

ليو:

العربية، أليس كذلك أمنا؟

الأرض:

بلى

أوليفر:

لماذا اختار الله -عز وجل- اللغة العربية؟

الأرض:

لأنّها لغة الفطرة... أو لتقل أقربها

آرثر:

أهي اللغة التي سمعتكم تتحدّثون بها؟

الأرض:

بلى

أوليفر:

كيف ذلك ؟ وهل للفطرة لغة؟

الأرض:

نعم... إذا كانت اللغة موافقة للفطرة في تركيبها وسيرها وقوانينها... علمنا إذا أنها أقربها لها

أوليفر:
وهل يمكن؟

الأرض:
إن شئتم تحققنا من ذلك ؟

أوليفر:
بالتأكيد

الأرض:
حسنا... لنبدأ بالكلمة عند انفرادها... ثم ننتقل عند تركيبها في جملة... علينا أن نعلم أن المفردات العربية لها صيغ أو صيغة تجمعها إذا تشابهت... مثل "جميل" و"طويل" و"كبير"... ألا ترون أنها على صيغة واحدة وإن اختلفت الحروف؟

أوليفر:
صحيح ألاحظ أنها على نفس الإيقاع

الأرض:

أحسنت... لكي يسهُل علينا الأمر، جعل علماء اللغة العربية **كلمة "فعل" هي ميزان الصيغ**... فكل حرف من كلمة تُقابل الحرف من "فعل"... مثال كتب على وزن "فعل"... فالكاف (كـ) تُقابل الفاء (فـ)، والتاء (تـ) تُقابل العين (عـ) والباء (بـ) تُقابل اللام (لـ)... مثال آخر ... جميل على وزن فعيل... فالجيم (جـ) تقابل الفاء (فـ)، والماء (مـ) تقابل العين (عـ)، والياء (يـ) هذا مد (وكل زيادة مد، وغيرها من حروف كلمة "سألتمونيها" تُزاد)، واللام (لـ) تقابل اللام (لـ)... وهكذا... "كاتب" على وزن "فاعل"، و"مكتوب" على وزن "مفعول"، و"تِجارة" على وزن "فِعالة"، و"جوعان" على وزن "فعلان"... فعلماء اللغة العربية فعلوا ذلك لأنّهم تنبّهوا إلى تشارك المفردات المتشابهة على وزن واحد... مثل ما رأينا جميل وطويل وكبير، على وزن واحد وهو فعيل... وتنبّهوا إلى أن هذه الكلمات تشترك في الدلالة وهي الصفة... وهكذا **كل صيغة لها دلالة... والكلمات التي تشترك على نفس الدلالة تشترك في الصيغة**

أوليفر:

عجيب!

الأرض:

نعم... تناسقها ومنطقها هذا يدلّ على أنّها لغة الفطرة لتناسق النفس ومنطق العقل... حتّى، وهذه فائدة مهمة ونكتة تُحسب لهذه اللغة، أنّك تستطيع من خلال الصيغة تعرف معناها أو دلالتها إذا كنت عرفت دلالة الصيغة... مثل لو عرضت لك كلمة "عطشان"، على وزن "فعلان"، وكنت تعرف أنّ هذا الوزن يدلّ على أنّها أولا صفة مشبّهة، ثمّ أنها حادثة وليست ثابة كطويل وقصير، ثم أنّها تدل على الامتلاء بالوصف إلى الحد الأقصى وإلى حرارة باطن... فقد اقتربْتَ إلى معناها، وعرفتها إذا كانت في سياق...

أوليفر:
أحقا هكذا؟!... إذا سهلا تعلّمها !

الأرض:
بلى... وأزيدكم فائدة أخرى تدلّ على منطقها وسهولة تعلّمها... أنّك إذا تعلّمت الصيغ أو الميزان، قدرتَ أن تُخرج باقي أخوات المفردة... مثل فِعل "كَتب"... أعلم أنّ الفاعل للكتابة على وزن "فاعل"، إذن أقول "كاتب"... والمفعول "مكتوب"... والذي أكتب عليه "مكتب" و"كتاب"... والذي يجمع الكتب "مكتبة"... وغيرها

أوليفر:
إذا ما عليّ إلا حفظ الصيغ وأدلّتها ونوعا من المفردات حتى أتعلّم اللغة العربيّة... سهلا جدا

الأرض:
يُسهّل لك جدا...بل حتى من خلال الحروف والحركات، تقدر تقترب لمعنى الكلمة ودلالتها... لكن هذا لمن كان له ذوق رفيع، وخبرة طويلة في اللغة... كابن تيمية، وابن جني، وغيرهما من العلماء الحُذّاق... قال ابن القيم: "قال ابن جني: ولقد مكثت برهة يرد عليّ اللفظ لا أعلم موضوعه، **فأجد معناه من قوة لفظه، ومناسبة تلك الحروف لذلك المعنى. ثم أكتشفه فأجده كما فهمته أو قريبا منه.** فحكيت لشيخ الإسلام هذا عن ابن جنى. فقال:
وأنا كثيرا ما يجرى لي ذلك. ثم ذكر لي فصلا عظيم النفع في **التناسب بين اللفظ والمعنى، ومناسبة الحركات لمعنى اللفظ**، وأنهم في الغالب يجعلون الضّمّة التي هي أقوى الحركات للمعنى الأقوى، والفتحة الخفيفة للمعنى الخفيف. والمتوسطة للمتوسط، فيقولون: عزّ يعز -بفتح العين- إذا صلب. وأرض عزاز: صلبة. ويقولون: عز يعزّ -بكسرها- إذا امتنع، والممتنع فوق الصلب، فقد يكون الشيء صلبا ولا يمتنع على كاسره. ثم يقولون: عزّه يعزّه. إذا غلبه. قال الله تعالى في قصة داود عليه السلام

﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطابِ﴾ والغلبة أقوى من الامتناع، إذ قد يكون الشيء ممتنعا في نفسه، متحصنا عن عدوه، ولا يغلب غيره. فالغالب أقوى من الممتنع، فأعطوه أقوى الحركات- وهو الضمة- والصلب أضعف من الممتنع. فأعطوه أضعف الحركات- وهو الفتحة- والممتنع المتوسط بين المرتبتين حركة الوسط."اهـ[60]

أوليفر:
ما هذه اللغة العجيبة العبقرية!... بدأت أفهم وأقتنع على أنّها لغة الفطرة

الأرض:
وحتى يطمئنّ قلبُك، سنرى بعض الصيغ ودلالتها... فإذا كانت دلالات عن عمق النفس فهذا أصرح دليل على أنّها لغة الفطرة، لمعرفة النفس ودقائقها، وجمع الكلمات على صيغة واحدة لتشراكها في أمور دقيقة، لا يمكن أن تكون من صنع البشر...

آرثر:
أتعنين أنّها من عند الله -عز وجل- ؟

[60] التفسير القيم لابن القيم

الأرض:

بلى... اللغة العربية بالتحديد دليل على أنّ اللغة ليست من صنع البشر... بل موهبة من عند الله -عز وجل-... وإلا يلزم قولهم أنّ واضعيها وخاصة واضعي اللغة العربية، أُناس عباقرة، حكماء، علماء النفس والطبيعة، بل أذكى ما وُجِد على وجه الأرض، إذا قُلنا خاصة لغياب الآلات والمعدات للفحص والتحليل النفسي والطبيعي... بالمناسبة، حتى ولو قُلنا أنّها من عند الله، لا ينفي ذلك وصف أهلها بالأوصاف التي ذكرت، إذْ أتقنوا وأبدعوا في استعمالهم لها، أنشد ابن الرِّقاع قصيدة يذكر فيه الخمر، فقال له معاوية: أما إني قد ارتبت فيك في جودة وصف الشراب، فقال: وأنا قد ارتبت بك في معرفته.

وقد قلنا أنّها تؤثّر على العقل والنفس...

أوليفر:

لنبدأ الأمثلة يا أمّنا!... أنا مُتشوّف لاكتشافها!

الأرض:

حسنا... [61]

- **فِعالة**

[61] الأمثلة التالية من كتاب "معاني الأبنية العربية" الدكتور فاضل السامرائي

هذا الوزن يدلّ على **حرفة أو ولاية** كالحياكة والخياطة، والتجارة، والسياسة...

- **فعيل**

ما دلّ على **صوت أوسير** كالصهيل والهرير والرحيل والذميل.

و"فعيل" و"فُعال" أختان في هذا كما اتفقتا في الوصف كقولك : طويل وطُوال، وخفيف وخُفاف.

الفرق بينهما :

"فُعال" أبلغ وأقوى، وذلك لأنّ مدة الألف أطول من مدة الياء.

- **فِعال**

ما دلّ على **امتناع** كأبى إباء وشرد شرادا.

ويدلّ أيضا على **قُرب شيء من شيء** كالصِّراف والضِّراب والنكاح.

ويدلّ على **الحينونة** كالصِّرام والجزام.

ويكون أيضا بناء **لأسماء الوسْم** كخباط وعلاط.

- **فَعَلان**

ما دلّ على **التقلب والاضطراب والحركة** كالجولان والغليان، والغثيان... ومثل هذا الغليان لأنه زعزعة وتحرك، ومثله الغثيان لأنه تجيش نفسه وتثور . . .

ومثل ذلك اللهبان والضمدان والوهجان لأنه تحرك الحرّ وتؤوره فإنما هو بمنزلة الغليان»

المصدر الميمي

المصدر الميمي في الغالب يحمل معه عنصر "**الذات**" **بخلاف المصدر الغير الميمي فإنّه حدث مجرد من كل شيء.**

فالمصير غير الصيرورة، فالمصير يحمل معه عنصرا ماديا.

ومن ناحية أخرى، إنّ المصدر الميمي في كثير من التعبيرات يحمل معنى لا يحمله المصدر غير الميمي.

اسم المرّة والهيئة

استعملوا (فَعْلة) للمرة من الثلاثي كقولهم : قعدت قَعْدة وأيت أتية، وربما جاؤوا بها على المصدر مضافا إليه تاء الوحدة نحو : أعطى إعطاءة، واستدرج استدراجة.

ويُؤتى للهيئة بـ (فِعْلة) كقِتْلة سوء، وجِلْسة، وطِعْمة.

1. **المفعلة**

   تدلّ على **سبب الفعل** كمَبْخلة ومجبنة.

   وقيل تدلّ على **كثرة الفعل.**

2. **التفعلة**

   تجيء لما **يؤدي إلى الشيء** كالتَّهْلكة وهي ما يؤدي إلى الهلاك، وكالتبصرة وهي ما يؤدي إلى الإبصار، والتذكرة ما يؤدي إلى التذكر.

3. **الفَعَلة والفُعْلة**

جاء لموضع **الفعل في الأعضاء كثيرا**، كالقَطَعة والقُطْعة لموضع القطع، وكذا الجَذَمة والجُذْمة، والصّلعة والصّلعة.

أسماء المكان والزمان

اسم المكان هو **مكان وقوع الفعل**، واسم الزمان هو **زمان وقوعه** نحو : مضرَب ومجلِس أي : مكان الضرب والجلوس أو زمانهما.

أوزانه :

1. **مَفْعَل**

نحو : مَنْصر ومقتل ومركب.

2. **مَفْعِل**

نحو : مجلِس، موعِد.

ألفاظ شاذة: مسجِد، ومشرِق، ومغرِب ومرفِق ومنبِت ومنخِر، بالكسر وقياسها فتح العين.

ومِطْبخ ومِربد بكسر الميم.

ومزرعة ومقبرة ومشرفة ومشربة مسربة.

وسبب هذه الألفاظ الخارجة عن القياس هو أنّ هذه الألفاظ الخارجة عن القياس هي **أسماء مخصوصة وليس المراد به المكان مطلقا.** فالمسجد بكسر الجيم مثلا اسم لبيت مخصوص يكون فيه السجود ولست تريد به

موضع جبهتك على الأرض ولو أردت ذلك لقلت : مسجَد بفتح الجيم على القياس.
وقل للكل هكذا.

4. مَفْعَلة

للدلالة على **كثرة الشيء الجامد بالمكان** كقولهم : أرض مأسدة، أي كثيرة الأسود، ومسبعة، أي كثيرة السباع.

اسم الفاعل

اسم الفاعل **يدل على الحدث والحدوث وفاعله.**
يقصد بالحدث معنى المصدر، وبالحدوث ما يقابل الثبوت فـ (قائم) - مثلا - اسم فاعل يدل على القيام وهو الحدث، وعلى الحدوث أي التغير، فالقيام ليس ملازما لصاحبه ويدل على ذات الفاعل أي صاحب القيام.

الفرق بين حدث الفعل وحدث اسم الفاعل :
الفعل يدلّ على التجدد والحدوث، فإن كان ماضيا دلّ على أن حدثه تم في الماضي، وإن كان حالا أو استقبالا دل على ذلك.
أما **اسم الفاعل فهو أدْوَمُ وأثبتُ من الفعل، ولكنه لا يرقى إلى الثبوت** حيث تكون لازمة له. فإن كلمة (قائم) أدوم وأثبت من قام أو يقوم ولكن ليس ثبوتها مثل ثبوت (طويل) أو (جميل) فإنه يمكن الانفكاك

عن القيام إلى الجلوس أو غيره ولكن لا يمكن الانفكاك عن الطول أو الجمال.

توضيح لثبوت اسم الفاعل بالنسبة للفعل :
قد تسأل طالبا : أتنجح هذا العام ؟ فيقول لك : أنا ناجح، أي : كأنّ الأمر قد تم وانتهى وثبت لصاحبه وإن لم يكن كذلك. فكلمة (ناجح) دلت على الثبوت بعكس (تنجح). وتقول : ألا ينام أخوك ؟ فتقول : هو نائم.

وثمّة فرق واضح بين قولك : هو يجدّ وهو مُجدّ، وهو يجتهد ومجتهد، ويحفظ وحافظ، فإن اسم الفاعل ـ كما ترى - يدل على ثبوت الوصف بالنسبة للفعل ولكنه يدل على الحدوث إذا ما قيس بالصفة المشبهة في قائم وطويل ونائم وكريم.

دلالته على النسب :
قد **يدل اسم الفاعل على النسب إلى الشيء** كقولهم لذي درع دارع، ولذي النبل : نابل، ولذي رمح : رامح.
فائدة :
ويدل على النسب ما كان على (فاعل) أو (مُفعل) من الصفات التي تختص بالمؤنّث بغير هاء التأنيث نحو : حائض وطالق ومرضع، إذ قد يأتي فاعل وصفا للمؤنث بمعنيين فتثبت الهاء في أحدهما وتسقط من الآخر لاختلاف المعنى فيقال مثلا :

(امرأة طاهر) من الحيض و(امرأة طاهرة) نقية من العيوب، وكذلك (امرأة حامل) من الحبل و(حاملة) على ظهرها أو تحمل شيئا ظاهرا، و(امرأة قاعد) إذا قعدت عن المحيض و(قاعدة) من القعود ففرق بينهما بالتاء لافتراق المعنيين.

وقد يكون دخول التاء وسقوطها لغير ذلك كحائض وحائضة وطالق وطالقة ومرضع ومرضعة وذلك أنه **إذا كان بغير التاء فهو للنسب** كحائض بمعنى : ذات حيض، ومرضع : ذات إرضاع، ونابل بمعنى : ذات نبل، ولابن، **وبالتاء على إرادة الفعل** "ومعنى إرادة الفعل كونه للتجدد والحدوث كالفعل، وما كان بمعنى النسب ليس كذلك بل هو للثبوت".
فالمرضع من كان لها لبن رضاع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به، وأما المرضعة فهي التي في حال الإرضاع مُلقمة ثديها للصبي.

اسم المفعول

اسم المفعول **ما دلّ على الحدث والحدوث وذات الفعول** كمقتول ومأسور.
فهو كما ترى لا يفترق عن اسم الفاعل إلا في الدلالة على الموصوف فإنه في اسم الفاعل يدل على ذات الفاعل كقائم، وفي اسم المفعول يدل على ذات المفعول كمنصور.

ويقال فيه ما قيل في اسم الفاعل من حيث دلالته على الحدوث والثبوت، فهو يدل على الثبوت إذا ما قيس بالفعل وعلى الحدوث إذا ما قيس بالصفة المشبهة.

فقد تقول : أتر أنك ستنصر عليهم ؟ فيقال : (أنا منصور) أي أن هذا الوصف ثابت لي.

وتقول : أتظنه سيُغلب ؟ فيقال : (هو مغلوب) أي هذا الوصف كأنه قد تم وثبت له.

1. فعيل

قد يؤتى بفعيل **بمعنى مفعول** كجريح وقتيل، فيستوي فيه المذكر والمؤنث فيقال : هو جريح وهي جريح وهو أسير وهي أسير.

فما الفرق بينه وبين مفعول ؟

أ. أن (فعيل) بمعنى **مفعول يدل على أن الوصف قد وقع على صاحبه على وجه الثبوت أو قريب من الثبوت فأصبح فيه كأنه خِلقة وطبيعة**، فيكون (فعيل) على هذا أبلغ من (مفعول) في الوصف، فكحيل أبلغ من مكحول، ودهين أبلغ من مدهون، وحميد أبلغ من محمود لأنه أثبت.

ب. لا يطلق وصف (فعيل) إلا إذا اتصف به صاحبه فلا يُقال (أسير) إلا إذا أُسر، ولا جريح إلا إذا جرح، في حين أن مفعولا قد يطلق على ما اتصف به صاحبه أو لم يتصف بمعنى أنه سيتصف به، فقد تطلق كلمة (مأسور) على من لم يؤسر بمعنى أنه سيؤسر، ومقتول على من لم يقتل بمعنى سيقتل،

ونحوخ قوله تعالى ﴿وإنّي لأظنك يا فرعون مثبورا﴾ أي : ستُثبر وهكذا.

ج. إنّ **الوصف بفعيل أشد من مفعول** كما في جريح ومجروح وكسير ومكسور.

2. فعيلة

فعيلة تختلف عن فعيل في ناحيتين :

1. أن (فعيلة) **تدل على الاسم لا الوصف** إذ إن تاء التأنيث حولت فعيلا من الوصفية إلى الاسمية.
2. أن (فعيلا) **يطلق على ما اتصف به صاحبه**، وأما (فعيلة) فتطلق على ما اتخذ لذلك، فالذبيح يطلق على ما ذبح والذبيحة لما اتخذ لذلك.

مبالغة اسم المفعول وما يقابله من اسم الفاعل

1. فُعْلة

نحو صُرعة وهو الذي يُرع كثيرا، وضُحكة وهو الذي يضحك كثيرا.

ويقابلها من صيغ مبالغة اسم الفاعل (**فُعَلة**) بفتح العين نحو : صُرَعة وهو الذي يصرع الناس كثيرا، وضُحَكة وهو الذي يضحك الناس كثيرا.

2. **فعيل**

نحو حميد وهو الذي لا يزال يُحمد كثيرا، ورجيم وهو الذي يُرجم كثيرا.

ويقابلها من صيغ مبالغة اسم فعيل بمعنى فاعل نحو : عليم وسميع.

3. **فعول**

نحو : ناقة ذلول ركوب وناقة أمون.

ويقابلها من مبالغة اسم الفاعل فعول بمعنى فاعل نحو : غفور وصبور.

4. **فُعُل**

نحو : باب فُتُح، وباب غُلُق، وأمر نُكُر.

ويقابلها من صيغ مبالغة اسم الفاعل فُعُل بمعنى فاعل نحو : رجل سُهُد، أي : قليل النوم، وفرس فُرُط : إذا كانت تتقدم الخيل، ورجل مُسُك، أي : بخيل.

5. **فُعْل بضم الفاء وسكون العين**

نحو : ناقة عُبْر أسفار، وشيء نُكْر.

ويقابلها من الصفات المشبهة باسم الفاعل فُعْل بمعنى فاعل نحو : حُرّ وصُلْب.

6. **فَعَل بفتحتين**

نحو : إبل هَمَل، ورجل نَكَل للذي ينكّلُ به أعداؤه.

ويقابلها من الصفات المشبهة : رجل صَنَع، أي : حاذق، ثوب خَلَق، ومكان زَلَق، ورجل حَسَن.

الصفة المشبهة

الصفة المشبهة **تدل على الثبوت، ومعنى الثبوت الاستمرار واللزوم أي أنها تدل على أن الصفة ثبتت في صاحبها على وجه الدوام** نحو : جميل وطويل وكريم وأحمق وأسمر وأبيض وجواد وضخم. فإذا أردنا الحدوث حوّلنا الصفة المشبهة إلى اسم الفاعل.

تقول : (هو كريم) أي : هو متصف بالكرم على وجه الاستمرار، فإذا أردت أنه سيقع منه كرم في الغد قلت : (هو كارم غدا) ولا تقول : (هو كريم غدا). وكذلك إذا وقع منه كرم في الماضي قلت : (هو كارم أمس) ولا تقول : (هو كريم أمس). ومثله : (هو جواد) أي : هو الآن متصف بالجود على وجه الاستمرار، فإذا أردت أنه جاد بالأمس قلت : (هو جائد بالأمس) ولا تقول : (هو جواد بالأمس). ومثله : فَرِح وفارح وحسن وحاسن، فإذا قلت : (كان كريما فيما مضى) كان المعنى أنه كان متصفا بالكرم في الماضي على جهة الاستمرار واللزوم.

دلالات أبنية الصفة المشبهة

1. **فَعِل بفتح الفاء وكسر العين**

هذا البناء **يدل على ما يُكره أمرهُ من الأمور الباطنة العارضة في الغالب.**

- إنه **عرض**، والمراد بالعرض هنا المعنى العارض للذات غير الراسخ أو المستقر فيها، وأنه مما يحصل ويسرع زواله كفرح وأسف.
- هذا البناء يتسم **بظاهرة الهَيْج والخفة** كقلق وأرج وفرح ومرح وأشر وجذل.
- إن هذا البناء غالبا فيما **يُكره أمره** من أوجاع **وعيوب باطنة وشدائد وما يعسرُ أمره أو في المكروهات عموما.**

نحو : وَجِع وحَبِطَ ودَوٍ، ونكد، وعَمِي من عمي قلبه.

2. **أفعل**

بناء أفعل **يختص بالصفات الظاهرة مما كان خلقة أو بمنزلتها** ومنها الألوان، نحو أحمر، أسمر، أخرس، أبكم.

ويدل على الثبوت بخلاف (فعِل) الذي هو للأعراض.

3. **فَعْلان**

بناء فعلان يتصف بالمعاني الآتية:

- **الحدوث والطروء**، فالعطش في عطشان ليس ثابتا وكذلك الشبع والجوع وإنما يزول.

- **الامتلاء بالوصف إلى الحد الأقصى**، فالغضبان هو الممتلئ غضبا، والعطشان هو الممتلئ عطشا، والولهان هو الممتلئ ولها. غير أن هذا الامتلاء بالوصف في (فعلان) أو التشبع بالصفة إلى أبعد حدودها غير ثابت وإنما هو امتلاء طارئ لا يلبث أن يزول فالغضبان لا يبقى كذلك ولا اللهفان أو الغرثان.
- **حرارة الباطن** : يصحب المتصف بهذا الوصف حرارة الباطن غالبا فالعطشان حار الباطن وكذلك الثكلان والولهان. وأيضا اتصاف حادث طارئ لا يلبث أن يزول.

4. **فعيل**

يدل هذا البناء على **الثبوت واللزوم مما هو خلقة أو مكتسب** كطويل وقصير وخطيب وفقيه.

إن هذا الوصف يبنى من (فعُل) المضموم العين، وهذا الفعل **يدل على الطبائع وعلى التحول في الصفات.**

فإذا أردنا أن نبالغ في هذا الوصف حولناه إلى (فُعال) نحو : طويل وطُوال وكبير وكبار.

أبنية المبالغة

فائدة : الأصل في المبالغة النقل.

إنّ أبنية المبالغة على ضربين :

- منها ما يختلف عن الآخر لتأدية معنى جديد نحو قولهم : رجل ذُعَرة، أي : ذو عيوب، وامرأة ذعور تُذعر من الريبة والكلام القبيح.
- ومنها ما تدل صيغته على معنى في المبالغة يختلف عن الصيغة الأخرى، فمعنى فعّال يختلف عن فعول في المبالغة وهما يختلفان عن مفعال وهكذا.

اسم الآلة

اسم الآلة على **الأداة التي يعالج بها**، ونذكر هنا أمورا تتعلق بمعاني اسم الآلة هي :

1. أنه قد يختلف البناء لاختلاف المعنى في اسم الآلة وذلك نحو : السُّكّان والسِّكّين من (سكن) وهما اسما آلة، فالسكان ذنب السفينة التي به تُعدّل والسكان أيضا ما تسكّن به السفينة، أي : تُمنع به من الحركة والاضطراب، والسكين : المدية.
2. إن بناء مفعل ومفعال ومفعلة **يدل على الأداة من دون قيد آخر أو زيادة في معنى** كالمكنسة والمطرقة والمفتاح والمنشار والمبرد ولمسنّ والمثقب. فالمكنسة : هي الأداة التي يكنس بها، والمطرقة : الأداة التي يطرق بها وهكذا.

3. إن صيغة فَعّال وفَعّالة وفُعّال وفِعّيل وفَعُّول وما فيه التضعيف عموما **تفيد التكثير في الآلة** كالقذّاف وهو المنجنيق، والحرّاقة وهي ضرب من السفن فيها مرامي نيران يُرمى بها العدو في البحر والكلاّب والكَلُّوب والخطّاف ونحوها وذلك أنها من صيغ المبالغة في الأصل وهي تفيد التكثير.
4. إن صيغة فِعال وفِعالة **تدل على الاشتمال في الغالب** كالحِزام والخمار والعِمامة والكِنانة، فالحزام يشتمل على الجسم ويلفه، والخمار يشتمل على الرأس ويغطيه، وكذا العمامة بالنسبة إلى الرأس، والكنانة تحتوي ما فيها.
5. بناء فاعول وفاعولة في الآلة **يدل على المبالغة في القيام بالفعل أو المبالغة في الآلة نفسها** من حيث هي كالناعور والناقور والصاقور والساطور. فالصاقور : فأس عظيمة تكسر بها الحجارة.
6. قد يغير بناء الآلة عن القياس لأنه لم يقصد بها قصد الفعل كما مر في أسماء المكان وذلك نحو : المُنخُل والمُسعُط والمُدُق، فالمنخل ليس لكل ما ينخل به، بل هو اسم مخصوص بآلة معينة على هيئة معينة فلو نخلت بخرقة ونحوها لم يسم منخلا، ولو أردت ذلك لبنَيته على الأصل فقلت : مِنْخَل.

نكتفي بهذا، ولن نذكر أبنية الجموع ولا النسب، ولكن أختم هذا الباب بهذه الفائدة أيضا : إنّ **أفعال السجايا والغرائز هي في الغالب مما يكون عينُه مضمومة في الماضي** نحو : قبُح وحسُن، بطُل وشجُع وعظُم.

هذه الأوزان تجعل اللغة العربية لغة عالمية صالحة لكل زمان، مثل ما لم يكن واكتشف لاحقا تقيس عليه، كالآلات في زمانكم هذا من ثلاجة وغسالة، وغيرها... لهذا نقول لغة قياسية.

أوليفر:
واوا... ما هذه الدقّة العجيبة!... حقا لو كُنا نحن البشر كُلّفنا بِوَضعها لما تنبّهنا لهذه الأمور...

ليو:

شعرت يا أوليفر بما شعرت به سابقا فقلت كما قلتُ

ضحك الجميع

الأرض:
أعلمتم الآن بقولي موهبة ربّانيّة؟... أي حتى لو وضعها البشر، لا يُمكن إلا أنّ الله -عز وجل- وفّقهم لها... كيف لهم أن يعلموا تشابه الأشياء في أمور غامضة ومعنويّة؟... وكيف علموا اختلافاتهم؟

ليو:
كأنّك تقرأ لقاموس النفس والطبيعة

الأرض:

أحسنت التشبيه!... وقد ذكر ابن جني ذلك إذ يقول "تجد للمعنى الواحد أسماء كثيرة، **فتبحث عن أصل كل اسم منها فتجده مفضي المعنى إلى معنى صاحبه.**

وذلك كقولهم: "خُلق الإنسان" فهو "فُعُل" من خلقت الشيء، أي: ملّسته، ومنه صخرة خلقاء للملساء. ومعناه: أن **خُلق الإنسان هو ما قدر له ورتب عليه، فكأنه أمر قد استقرّ وزال عنه الشك**، ومنه قولهم في الخبر: "قد فرغ الله من الخلْق والخُلُقُ"، والخليقة فَعِيلة منه.

وقد كثرت فعيلة في هذا الموضع، وهو قولهم: "الطبيعة" وهي من طبعت الشيء "أي: **قررته" على أمر ثبت عليه**، كما يطبع الشيء كالدرهم والدينار فتلزمه أشكاله، فلا يمكنه انصرافه عنها ولا انتقاله.

ومنها "النحيية" وهي فَعِيلة من نحت الشيء "أي" ملسته وقررته على ما أردته منه. فالنحيتة كالخليقة: هذا من نحت، وهذا من خلقت.

ومنها "الغريزة" وهي فعيلة من غرزت، كما قيل لها طبيعة؛ لأن طبع الدرهم ونحوه ضرب من وسمه، وتغريزه بالآلة التي تثبت عليه الصورة. وذلك استكراه له وغمز عليه كالطبع.

ومنها "النقيبة" وهي فَعِيلة من نقبت الشيء وهو نحو من الغريزة.

ومنها **"الضريبة" وذلك أن الطبع لا بد معه من الضرب، لتثبيت "له" الصورة المرادة.**

ومنها "النخيزة" هي فَعِيلة من نَخَزْت الشيء، أي: دققته، ومنه المنحاز: الهاوون؛ لأنه موضوع للدفع به والاعتماد على المدقوق، قال:

يخزن من جانبيها وهي تنسلب" نقف عند هذا الاقتباس وإلا قد ذكر مفردات أخر...

وقد ذكر بابا دقيقا عجيبا، كما قال عنه "غورا" من العربية... وهو "**تصاقب** (تصاريف الألفاظ لمتعاقب المعاني) **الألفاظ لتصاقب المعاني:**

هذا غور من العربية لا ينتصف منه ولا يكاد يحاط به. وأكثر كلام العرب عليه وإن كان غفلًا مسهوًّا عنه، وهو على أضرب:

منها اقتراب الأصلين الثلاثيين؛ كضياط وضَيْطار، ولُوقةٍ وأَلوقةٍ، ورخْو ورِخْوَدٍّ، ويَنْجُوج وأَنْجُوج.

ومنها اقتراب الأصلين ثلاثيًّا أحدهما ورباعيًّا صاحبه، أو رباعيًّا أحدهما وخماسيًّا صاحبه؛ كدمث ودمثر، وسبط وسبطر، ولؤلؤ ولُآل، والضبغطى والضبغطري. ومنه قوله:

قد دَرْدَبَتْ والشيخ دَرْدَبِيس ...

ومنها التقديم والتأخير على ما قلنا في الباب الذي قبل هذا في تقليب الأصول نحو: "ك ل م " و"ك م ل " و"م ك ل " ونحو ذلك. وهذا كله والحروف واحدة غير متجاورة. لكن من وراء هذا ضرب غيره وهو أن تتقارب الحروف لتقارب المعاني، وهذا باب واسع.

من ذلك قول الله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ أي: تزعجهم وتقلقهم، **فهذا في معنى تهزّهم هزًّا، والهمزة أخت الهاء، فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين. وكأنهم خصّوا هذا المعنى بالهمزة لأنها أقوى من الهاء، وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهزّ؛ لأنك قد تهز ما لا بال له كالجذع وساق الشجرة**، ونحو ذلك.

" ومنه العَسْف والأَسَف، والعين أخت الهمزة، كما أن الأسف يعسف النفس وينال منها، والهمزة أقوى من العين، كما أن أسف النفس أغلظ من "التردد" بالعسف. فقد ترى تصاقب اللفظين لتصاقب المعنيين".

ومنه القرمة وهي الفقرة تُخزّ على أنف البعير. وقريب منه قلَّمت أظفاري؛ لأن **هذا انتقاص للظفر وذلك انتقاص للجلد. فالراء أخت اللام** والعملان متقاربان. وعليه قالوا فيها: الجَرْفة وهي من "ج ر ف " وهي أخت جلفت لقلم إذا أخذت جُلْفته، وهذا من "ج ل ف "؛ وقريب منه الجنف وهو الميل، وإذا جَلَفت الشيء أو جرفته فقد أملته عمَّا كان عليه، وهذا من "ج ن ف ".

ومثله تركيب "ع ل م " في العلامة والعلم، وقالوا مع ذلك: بيضة عرماء وقطيع أعرم إذا كان فيهما سواد وبياض، وإذا وقع ذلك بأن أحد اللونين من صاحبه، **فكان كل واحد منهما علمًا لصاحبه.** وهو من "ع ر م"، قال أبو وجزة السعدي:

ما زلن ينسبن وهنا كل صادقةٍ ... باتت تباشر عُرْمًا غير أزواجِ

حتى سَلَكن الشوى منهن في مسكٍ ... من نسل جوابة الآفاقِ مهداج

ومن ذلك تركيب "ح م س " و "ح ب س "، قالوا: حبست الشيء، وحمس الشر إذا اشتد، **والتقاؤهما أن الشيئين إذا حبس أحدهما صاحبه تمانعا وتعازا، فكان ذلك كالشر يقع بينهما.**

ومن ذلك العلز: خفّة وطيش وقلق يعرض للإنسان، وقالوا: "العلوص" لوجع في الجوف يلتوي له الإنسان ويفلق منه. فذاك من "ع ل ز"، وهذا من "ع ل ص"، والزاى أخت الصاد.

ومنه الغَرْب: الدلو العظيمة، وذلك لأنها يغرف من الماء بها، فذاك من "غ ر ب "، وهذا من "غ ر ف " ، أنشد أبو زيد:

كأن عيني وقد بانوني ... غربان في جدول منجنون

واستعملوا تركيب "ج ب ل " و "ج ب ن " و "ج ب ر " **لتقاربها في موضع واحد وهو الالتئام والتماسك. منه الجبل لشدّته وقوته، وجبن إذا استمسك وتوقَّف وتجمَّع، ومنه جبرت العظم ونحوه، أي: قويته."**[62]اهـ

نقف عند هذا...

ليو:

---

[62] الخصائص، ابن جني

كما قال... علينا الغوص في الغور حتى ننتبه لهذا... هههه

الأرض:

ثمّ إنّهم انتبهوا أو اللغة انتبهت لمراتب الصفات... فالصّفة الواحدة ليست على نفس الدرجة، أي الصفة لا تُعطي ذاتها لكل شخص... بل تُعطيه على قدر ما اتصف منها... مثال ذلك، الشجاعة... فليس كلّ من اتّصف بالشجاعة، على نفس درجة كلّ الشجعان أي الأشخاص المتصفون بالشجاعة... بل الشجاعة درجات... فإذا كانَ شَدِيدَ القَلْبِ رَابِطَ الجَأْشِ فَهُوَ زِيرٌ وَمِزْبِر... فإذا كانَ لَزُوماً لِلقِرْنِ لا يُفَارِقُهُ فهو حَلْبَسٌ (عَنِ الكِسَائي)... فإذا كانَ شَدِيدَ القِتَالِ لَزُوماً لِمَنْ طَالَبَهُ فهو غَلِثٌ (عَن الأَصْمَعِي)... فإذا كانَ جَرِيئاً عَلَى اللَّيْلِ فَهَوَ مِخَشٌّ ومِخْشَفٌ (عَنْ أبي عَمْرٍو)... فإذا كانَ مِقْدَاماً عَلَى الحَرْبِ عَالِماً بأَحْوَالِها فَهُوَ مِحْرَب... فإذا كانَ منكرا شديدا فَهُوَ ذَمِرٌ (عَنِ الفَرَّاءِ)... فإذا كانَ بِهِ عُبُوسُ الشَّجَاعَةِ والغَضَبِ فَهُوَ بَاسِل... فإذا كانَ لا يُدْرَى مِنْ أَيْنَ يُؤْتَى لِشِدَّةِ بَأْسِهِ فَهُوَ بُهْمَةٌ (عَنِ اللَّيْثِ)... فإذا كانَ يُبْطِلُ الأَشِدَّاءَ والدِّمَاءَ فَلاَ يُدْرَكُ عِندهُ ثَأْر فهو بَطَل... فإذا كان يركب رأسه لا يَثْنِيهِ شَيْء عَمَّا يَرِيدُ فَهُوَ غَشَمْشَم (عَنِ الأَصْمَعِيّ)... فإذا كانَ لاَ يَخْشَى لِشَيءٍ فَهَوَ أَيْهَم (عَنِ اللَيْثَ)...

وهكذا تَرْتِيبِ الشَّجَاعَةِ:

"رَجُل شُجَاع، ثُمَّ بَطَل، ثُمَّ صِمَّةٌ، ثُمَّ بُهْمَة، ثُمَّ ذَمِر، ثُمَّ حَلِسٌ وحَلْبَسٌ، ثمَ أهْيَسُ أليس، ثُمَّ نِكْلٌ، ثُمَّ نَهيك ومِخْرَبٌ، ثمّ غشمشم وأيهم."اهـ[63]

أوليفر:

واوا!... زيدينا يا أمنا!

الأرض:

حسنا... لننظر في تَرْتِيبِ حُسْنِ المَرْأَةِ:

آرثر ضاحكا:

امم هذا باب جيّد...

الأرض مبتسمة:

إذا، إذا كانَتْ المرأة بِهَا مَسْحَة مِن جَمَال فَهِيَ وَضِيئَة **وجَمِيلَةٌ**، فإذا أشْبَهَ بَعْضُهَا بَعْضاً في الحُسْنِ فهِي **حُسَّانَة**، فإذا اسْتَغْنت بِجَمَالِهَا عَنِ الزّينةِ فَهِيَ **غَانِيَة**، فإذا كَانَتْ لا تُبالِي أنْ لا تَلْبَسَ ثَوْباً حَسَناً ولا تَتَقَلَّدَ قِلادَةً فَاخِرَةً فَهِيَ **مِعْطَال**، فإذا كانَ حُسْنُهَا ثَابِتاً كأَنَهُ قَدْ وُسِمَ فَهِيَ **وَسِيمَةٌ**، فإذا قُسِمَ

[63] فقه اللغة وسر العربية، أبو منصور الثعالبي

لَهَا حَظ وَافِر مِنَ الحُسْنِ فَهِيَ قَسِيمَة، فإذا كانَ النَّظَر إِلَيْهَا يَسُرُّ الرُّوعَ فَهِي رَائِعَةٌ، فإذا غَلَبَتِ النِّسَاءَ بِحُسْنِها فَهِيَ بَاهِرَةٌ.[64]

آرثر ضاحكا:

أوليفر!... كيف ترى حبيبتك أميليا؟

أوليفر:

باهرة

آرثر:

باهرة!... فهي محظوظة بك إذا

أوليفر:

بل أنا المحظوظ

آرثر:

الله الله!... ما هذه الرومانسية يا أوليفر؟

[64] نفس المصدر السابق

ليو:

لنعد لبحثنا يا أمّنا... فأحدهما عاشق والآخر باحث عنه... هههه

الأرض مبتسمة:

لم تكتفي اللغة العربية بترتيب الجمال... بل فصّلت وقسّمت الحسن ذاته... فجعلت الصَّبَاحَةَ في الوَجْهِ، والوَضَاءَة في البَشَرَةِ، والجَمَال في الأَنْفِ، والحَلاوَة في العَيْنَيْنِ، والمَلاحَة في الفَمِ، والظَّرْف في اللِّسَانِ، والرَّشَاقَة في القَدِّ، واللَّبَاقَة في الشَّمَائِلِ، وكَمَال الحُسْن في الشّعر.[65]

ليو:

آآآآه وكأني أشعر بكل كلمة منها...

الأرض:

كأنّي أراك مثل صاحبيك... صدق النبي -صلى الله عليه وسلم- "الجنود أرواح مجندة، ما تعارف منها ائتلف"

ليو:

---

[65] نفس المصدر السابق

أقصد هذا يُشوّقني ويُحمّسني لتعلّمها... كما قلت سابقا أريد الكلام بالبيان الحسن... وأرى أن هذه اللغة أفضل اللغات عن التعبير الجميل والدقيق والبيان الراقي...

الأرض:
إذا كنت تشعر بالكلمة عند انفرادها، فكيف يكون أمرك وإحساسك لو كانت عند تركيبها في جمل؟

ليو:
إنّ قلبي يضطرب تشوّفا لسماع ذلك

أوليفر:
الله الله يا ليو!... أصبحت شاعرا الآن... وبسرعة... كيف وإن حفظت بعض القصائد

ضحك الجميع

الأرض:

حسنا لنبدأ... لنعلم أنّ اللغة العربية معربة، أي يتغيّر آخر كلمتها، سواء الحركة أو الحرف، على حسب العامل الداخل عليها... مثال توضيحي... إذا كانت الكلمة في موضع الفاعل، فلها حركة، وهي الضمة مثلا... وإذا كانت في موضع المفعول به، فلها حركة أخرى، الفتحة مثلا... وإذا كانت في موضع الجر، فلها أخرى تُميزها، الكسرة مثلا... مثل كلمة خالد... إذا كان فاعلا، نقول "خرج خالدٌ" بالرفع... وإذا كان في موضع المفعول به، نقول "كلّم محمدٌ خالداً" بالفتحة... وإذا كان في موضع الجر، نقول "مررت بخالدٍ" بالكسرة...

أوليفر:
لماذا هذا التغيّر؟

الأرض:
هذا يمنحها الحريّة من دون زيادة ألفاظ...

أوليفر:
الحريّة!... كيف؟

الأرض:

بأن تتخذ لنفسها الموضع المناسب المَعْني من قائله من دون زيادة ألفاظ... مثال، لو قلتُ [66]"أقام زيد؟"... فما الذي أسأل عنه؟

أوليفر:
تسألين عن قيام زيد؟

الأرض:
أحسنت... وإذا قلت "أزيدٌ قام؟" فما الذي أسأل عنه؟

أوليفر:
ممم... وكأنك تعلمين أنّه حصل قيام، أيْ شخصٌ ما قام... وتسألين إذا كان هو زيد... وفي المثال الأوّل لا تدرين أصلا عن وجود قيام، ولكن تسألين هل قام أم لا...

الأرض:
أحسنت أحسنت!... وإذا قلتُ: "ما ضربتُ زيداً"، فقدَّمْتُ الفعلَ، كان المعنى أَنّي قد نَفيْتُ أن يكونَ قد وقَع ضَرْبٌ منّي على زيدٍ، ولم أعرِضْ في أَمرٍ غَيرِهِ لنفيٍ ولا إثباتٍ، وتركْتُه مُبْهَماً محتمَلاً.

---

66 الأمثلة من دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني (جعلته على ضمير المتكلم)

وإذا قلتُ: "ما زيداً ضربتُ"، فقدَّمْتُ المفعولَ، كان المعنى على أنَّ ضرْباً وقعَ منّي على إنسانٍ، وظُنَّ أنَّ ذلك الإنسانَ زيدٌ، فنفيتُ أَن يكون إيَّاه. فلِي أن أقولَ في الوجهِ الأول: "ما ضربتُ زيداً ولا أحداً من الناس"، وليس لي ذلك في الوجه الثاني. فلو قلتُ: "ما زيداً ضربتُ ولا أحداً من الناس"، كان فاسداً.

مثال آخر، إذا قلتُ: "ما أَمَرْتُك بهذا"، كان المعنى على نفْيِ أن أكونَ قد أمرتُه بذلك، ولم يَجبْ أن أكونَ قد أمرتُه بشيءٍ آخرَ، وإذا قلتُ: "ما بهذا أمرْتُك"، كنتُ قد أمرتُه بشيءٍ غيرِه.

أوليفر:

حقا لغة عبقرية

الأرض:

ومن أسباب التقديم الاهتمام والاختصاص، مثل أن تقول "خلّدت لقمان حكمتُه" أو "خلّدت خالدا فتوحاته" ، فقدّمت المفعول به على الفاعل

وهناك أغراض أخر للإعراب غير التقديم والتأخير... مثل الحذف، أي تحذف العامل... كقول الشاعر:

ديارَ ميَّة إذْ ميٌّ تُسَاعِفُنَا ... ولا يَرى مثْلَها عُجْمٌ ولا عَرَبُ

أَنْشَدهُ بنَصْبِ "ديارَ" على إضمارِ فعلٍ، كأنه قالَ: أذكرُ ديارَ مية

ليو:

جميل

آرثر:

ما تقصد بالجميل؟ البيت أم اللغة؟

الأرض:

لا تُحرجه يا آرثر... فكليهما جميل... ثمّ العربية استعملت التعريف والتنكير بأوسع مما استعملته باقي اللغات

مثال ذلك... "زيدٌ منْطَلِقٌ" و "زيدٌ المنطلقُ"... ليست بمعنى واحد... إذا قلتَ: "زيدٌ منطلقٌ"، كانَ كلامُك مع مَنْ لم يعلَمْ أنَّ انطلاقاً كان، لا مِنْ زَيْد ولا مِنْ عَمْرو، فأنتَ تُفيدُه ذلك ابتداءً...

وإذا قلتَ: "زيدٌ المنطلقُ" كان كلامُك مع مَنْ عَرَفَ أنَّ انطلاقاً كان، إما من زَيْد وإمّا من عَمرو، فأنتَ تُعْلِمه أنه كان من زيدٍ دون غيره...

والنُكتةُ أنك تُثْبِتُ في الأول الذي هو قولك: "زيدٌ منطلقٌ" فِعْلاً لم يَعْلم

السامعُ من أصْله أنه كان، وتُثبتُ في الثاني الذي هو "زيدٌ المنطلقُ" فعْلاً قد عَلِمَ السامعُ أنَّه كان، ولكنه لم يَعْلَمُهُ لِزَيْدٍ، فأَفَدْتَهُ ذلك[67]...

وأبواب نحو اللغة العربية كثيرة لكثرة قوانين النفس... فما هي إلا مُعبّرة عنها... حرّة كحرّيتها... معتدلة كاعتدالها... متناسقة كتناسقها... ذكية كذكائها...

أوليفر:

جميل جدا!

الأرض:

اللغة العربية أتاحت للبشر جميع الأدوات والتقنيات لأداء بيانٍ راقٍ... يأخذ سامعه إلى رؤية المعاني... كأدوات وتقنيات التصوير السينمائي... فالمفردات العربية كالكاميرا، والعدسات، ومعدات الإضاءة، وأدوات التثبيت... والنحو كتقنية الإطار، وحجم اللقطة، وزاوية الكاميرا، وحركة الكاميرا، والإضاءة، والعدسات، وعمق المجال... فكليهما، اللغة والتصوير، يهدف إلى البيان الراقي المؤثر... ألا وهو "لا تُخبر السامع أو المشاهد... بل دعه يشعر ويكتشف"... أي الصورة المعنوية أو السينامائية أهم من

---

67 دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني ت محمود شاكر

الكلام... فقواعد التصوير السينمائي هي هي قواعد البيان... فمن كانت أدواته أقل وتقنياته أدنى... كانت نتيجته أضعف تأثيرا... وبالعكس، من كانت أدواته أكثر، وتقنياته أعلى... كانت نتيجته أقوى تأثيرا...
أأدركتم قدر اللغة العربية؟ وتوافقها للفطرة؟

الأولاد:

بلى

الأرض:
الآن... يُمكن لنا أن نُدرك علو بيان القرآن
فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ [الأنعام] . فاستعمل الفعل مع الحي فقال: (يخرج) ، واستعمل الاسم مع الميت فقال : (مخرج)، وذلك لأن أبرز صفات الحي الحركة والتجدد، فجاء معه بالصيغة الفعلية الدالة على الحركة والتجدد ، ولأن الميت في حالة همود وسكون وثبات جاء معه بالصيغة الاسمية الدالة على الثبات فقال : ﴿ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ﴾ .

وقد تقول : ولماذا قال في سورة آل عمران : ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ بالصيغة الدالة على التجدد في الموطنين؟

فنقول : إنَّ السياق في آل عمران يختلف عنه في الأنعام، وذلك أن السياق في آل عمران هو في التغيير والحدوث والتجدد عموماً، فالله سبحانه يؤتي ملكه من يشاء أو ينزعه منه، ويُعزُّ من يشاء أو يُذله، ويغير الليل والنهار، ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، وغير ذلك من الأحداث، فالسياق كله حركة وتغيير وتبديل ، فجاء بالصيغة الفعلية الدالة على التجدد والتغيير والحركة .

قال تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران]

في حين أن السياق في سورة الأنعام مختلف وليس السياق في التغييرات ، وإنما هو في صفات الله تعالى وقدرته وتفضله على خلقه . قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (95) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام] .

فأنت ترى أنه بدأ الآية بالجملة الاسمية وكان مُسندها اسماً أيضاً ، ثم جاء بعده باسمين آخرين هما (مخرج الميت) و (فالق الإصباح) ، ثم ذكر أنه

(يخرج الحي) بالصورة الفعلية لما ذكرت من حركة الحي ، بخلاف ما في آية آل عمران من دلالة على التغير والحركة. فالسياق مختلف ، ولذا تتوالى الأفعال في هذه الآية . فوضع كل صيغة في المكان اللائق بها .[68]

المثال الثاني: استعماله للأبنية الأخرى فهو يستعملها استعمالاً فنياً عجيباً ويضعها وضعاً معجزاً، فمن ذلك أن يأتي بالفعل ثم لا يأتي بمصدره بل يأتي بمصدر فعل آخر يلاقيه في الاشتقاق فيجمع بين معنى الفعل ومعنى المصدر من أقرب طريق وأيسره وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ [المزمل] ، فإنه جاء بالفعل (تبتل) غير أنه لم يأت بمصدره وإنما جاء بمصدر فعل آخر هو (بتل) وذلك أن مصدر تبتل هو (التبتل) ، فإن مصدر (تفعل) يكون على (التفعل) كتعلم تعلماً وتقدم تقدماً. وأما (التبتيل) فهو مصدر بَتَّلَ لا تبتل فإن (التفعيل) هو مصدر (فعل) كعلم تعليماً وعظم تعظيماً. وكان المتوقع أن يقول (وتبتل إليه تبتلا) غير أنه لم يقل ذاك. وسبب ذلك أنه أراد أن يجمع بين معنيي التبتل والتبتيل، وذلك أن تبتل على وزن تفعل، و (تَفَعَلَ) : يفيد التدرج والتكلف مثل : تجسس وتحسس وتبصر وتدرّج وتمشى وغيرها، فإن في تجسس وتحسس وبقية الأفعال تدرّجاً و تكلفاً . ألا يرى أن في

68 التعبير القرآني، الدكتور فاضل صالح السامرائي

(تبصر) من التدرج وإعادة النظر والتكلف ما ليس في (بصر)، وفي (تمشى) من التدرج ما ليس في (مشى)؟

وأما (فعّل) فيفيد التكثير والمبالغة وذلك نحو : كسر وكسر، فإن في كسّر المضاعف من المبالغة والتكثير ما ليس في كسر الثلاثي . فقولك : كسّرت القلم يفيد أنك جعلته كسرة كسرة بخلاف ما إذا قلت: (كَسَرْتُ القَلَمَ) فإنه يفيد أنك كسرته مرة واحدة. وكذلك قولك: (قطّعت اللحم) فإنه يفيد أنك جعلته قطعة قطعة، بخلاف ما إذا قلت : (قطعت اللحم) بلا تضعيف فإنه يفيد أنك قطعته مرة واحدة. وتقول: (موتت الإبل إذا كثر فيها الموت. ولا يقال : (موت البعير) لأنه ليس في موت البعير تكثير . فالله سبحانه جاء بالفعل لمعنى التدرج ثم جاء بالمصدر لمعنى آخر هو التكثير، وجمع المعنيين في عبارة واحدة موجزة . ولو جاء بمصدر الفعل (تبتل) فقال : (وتبتل إليه تبتلا) لم يفد غير التدرج ، وكذلك لو قال وبتل نفسك إليه تبتيلا) لم يُفد غير التكثير. ولكنه أراد المعنيين فجاء بالفعل من صيغة والمصدر من صيغة أخرى وجمعهما . فهو بدل أن يقول : (وتبتل إليه تَبَتُّلًا وَبَتِّل نفسَكَ إليه تبتيلا) جاء بالفعل لمعنى ثم جاء بالمصدر المعنى آخر، ووضعهما وضعاً فنياً فكسب المعنيين في آن واحد ، وهذا باب شريف جليل .

جاء في (التفسير القيم): ومصدر تبتل إليه : (تبتل): كالتعلم والتفهم ، ولكن جاء على (التفعيل) مصدر (فعل) لسر لطيف ، فإن في هذا الفعل إيذاناً بالتدريج والتكلف والتعمل والتكثير والمبالغة. فأتى بالفعل الدال على أحدهما وبالمصدر الدال على الآخر، فكأنه قيل : بتل نفسك إلى الله تبتيلا وتبتل إليه تبتلا ، ففهم المعنيان من الفعل ومصدره .
وهذا كثير في القرآن وهو من حسن الاختصار والإيجاز .
وليس هذا كل شيء في هذا الجزء من الآية ، بل انظر الوضع الفني التربوي الآخر وهو أنه جاء **بالفعل الدال على التدرج أولا، ثم بالمعنى الدال على الكثرة والمبالغة بعده ، وهو توجيه تربوي حكيم، إذ الأصل أن يتدرج الإنسان من القلة إلى الكثرة، والمعنى: احمل نفسك على التبتل والانقطاع إلى الله في العبادة شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى الكثرة ، والمعنى ابدأ بالتدرج في العبادة وانته بالكثرة.** وليس من الحكمة أن يضع الصيغة الدالة على الكثرة والمبالغة أولا ثم يأتي بالصيغة الدالة على التدرج والتكلف فيما بعد بل الطريق الطبيعي أن يتدرج الإنسان في حمل النفس على الشيء من القلة إلى الكثرة والمبالغة حتى يكون وصفاً ثابتاً له . فهو وضعها وضعاً تربوياً أيضاً .
ثم انظر كيف وضعها ربنا وضعاً فنياً عجيباً آخر فجاء للدلالة على معنى التدرج والحدوث بالصيغة الفعلية، لأن الفعل يدل على الحدوث والتجدد فقال : (وتبتل) ، ثم جاء للدلالة على معنى المبالغة والكثرة والثبوت

بالصيغة الاسمية الدالة على الثبوت والكثرة ، لأنها الحالة الثابتة المرادة في العبادة ، أما حالة التدرج فهي حالة موقوتة يراد منها الانتقال لا الاستمرار والاستقرار، فجاء لكل معنى بما يناسبه .[69]

المثال الثالث: وقد يجمع بين صيغتين من مادة واحدة احتياطاً للمعنى، وذلك كقوله تعالى : ﴿الرحمن الرحيم﴾، فإن (الرحمن) على وزن فعلان، و (الرحيم) على وزن فعيل فجمع بينهما، وذلك أن صيغة (فعلان) تدل على الصفات المتجددة، وذلك نحو : عطشان وجوعان وغضبان ونحوها، فإن العطش في عطشان، ليس صفة ثابتة بل يزول ويتحول، وكذلك جوعان وغضبان بخلاف: (فعيل) فإنه يدل على الثبوت وذلك نحو : كريم وبخيل وطويل وجميل فإن هذه الصفات ثابتة، فليس (طويل) مثل : (عطشان) في الوصف، ولا (قبيح) مثل جوعان. ودلالة هذا البناء على الحدوث بارزة في لغتنا الدارجة ، تقول : (هو ضعفان) إذا أردت الحدوث، فإذا أردت الثبوت قلت: هو (ضعيف)، وكذلك سمنان وسمين. ألا ترى أنك تقول لصاحبك : أنت ضعفان، فيرد عليك : أنا منذ نشأتي ضعيف، وتقول له : أراك طولان . فيقول : أنا طويل منذ الصغر .

---

[69] نفس المصدر السابق

وهذا من أبرز ما يميز صيغة (فعلان) عن (فعيل) ... فإن صيغة (فعلان) تفيد الحدوث والتجدد وصيغة (فعيل) تفيد الثبوت، فجمع الله سبحانه لذاته الوصفين. إذ لو اقتصر على (رحمن) لظن ظان أن هذه صفة طارئة قد تزول كعطشان وريان. ولو اقتصر على (رحيم) لظن أن هذه صفة ثابتة ولكن ليس معناها استمرار الرحمة وتجددها، إذ قد تمر على الكريم أوقات لا يكرم فيها، وقد تمر على الرحيم أوقات كذلك. والله سبحانه متصف بأوصاف الكمال، فجمع بينهما حتى يعلم العبد أن صفته الثابتة هي الرحمة، وأن رحمته مستمرة متجددة لا تنقطع، حتى لا يستبد به الوهم بأن رحمته تعرض ثم تنقطع أو قد يأتي وقت لا يرحم فيه - سبحانه - فجمع الله كمال الاتصاف بالرحمة لنفسه.[70]

المثال الرابع: ومن ذلك أنه يستعمل صيغة جمع في مكان، ثم يستعمل صيغة جمع أخرى في مكان آخر يبدو شبيهاً بالأول، ومن لطيف استعمال القلة والكثرة ما جاء في قوله تعالى : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل].

---

[70] نفس المصدر السابق

وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَدِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ منير ﴾ [لقمان].

فجمع النعمة في آية النحل جمع قلة (أنعم) ، وجمعها في لقمان جمع كثرة (نعمه) وذلك أن نعم الله لا تحصى، فلا يطيق الإنسان شكرها جميعها، ولكن قد يشكر قسماً منها، ولذلك لما ذكر إبراهيم وأثنى عليه قال : إنه شاكر لأنعمه، ولم يقل : لنعمه، لأن شكر النعم ليس في مقدور أحد، بل إن إحصاءها ليس في مقدور أحد فكيف بشكرها؟ قال تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ [النحل) . وأما الآية الثانية فهي في مقام تعداد نعمه وفضله على الناس فقال : ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾. فذكرها بزنة جمع الكثرة.[71]

المثال الخامس: وجعلوا من ذلك تقديم الليل على النهار والظلمات على النور قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ [الأنبياء] ، فقدم الليل لأنه أسبق من النهار ، وذلك لأنه قبل خلق الأجرام كانت الظلمة، وقدم الشمس على القمر لأنها قبله في الوجود.

[71] نفس المصدر السابق

وقال : ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ [النور]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.[72]

المثال السادس: وجعلوا منه أيضاً تقديم المغفرة على الرحمة نحو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة] في آيات كثيرة ، وقوله : ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رحِيمًا ﴾ [النساء] قالوا : وسبب تقديم الغفور على الرحيم أن «المغفرة سلامة والرحمة غنيمة، والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة ، وإنما تأخرت في آية سبأ في قوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ [سبا] فالرحمة شملتهم جميعاً والمغفرة تخص بعضاً. والعموم قبل الخصوص بالرتبة ». وإيضاح ذلك أن جميع الخلائق من الإنس والجن والحيوان وغيرهم محتاجون إلى رحمته، فهي برحمته تحيا وتعيش، وبرحمته تتراحم. وأما المغفرة فتخص المكلفين، فالرحمة أعم.[73]

المثال السابع: قد يحذف في التعبير القرآني لفظ أو أكثر حسبما يقتضيه السياق، فقد يحذف حرفاً أو يذكره أو يجتزئ بالحركة للدلالة على المحذوف، كل ذلك لغرض بلاغي تلحظ فيه غاية الفن والجمال، فمن

---

72 نفس المصدر السابق
73 نفس المصدر السابق

ذلك قوله تعالى : ﴿ فَمَا اسْطَعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ [الكهف].

وهذه الآية قالها ربنا في السد الذي صنعه ذو القرنين من قطع الحديد والنحاس المذاب . قال تعالى على لسان ذي القرنين : ﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ وَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ [الكهف].
فقال : ﴿ فَمَا اسْطَعُوا أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ أي : يصعدوا عليه، فحذف التاء، والأصل: (استطاعوا) ، ثم قال : ﴿ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبا ﴾ بإبقاء التاء . وذلك أنه لما كان صعود السد الذي هو سبيكة من قطع الحديد والنحاس أيسر من نقبه وأخف عملا ، خَفَّفَ الفعل للعمل الخفيف، فحذف التاء، فقال : ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ ﴾، وطَوَّلَ الفعل فجاء بأطول بناء له للعمل الثقيل الطويل فقال : ﴿ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبا ﴾ فحذف التاء في الصعود وجاء بها في النقب.[74]

المثال الثامن: استعمال الله -عز وجل- للأمثلة، والأمثلة في القرآن تأتي لتشبيه شيء بشيء في حُكْمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد

[74] نفس المصدر السابق

المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالآخر، فإن كانت الأمثلة صحيحة، فهذا يُعدّ دليلا على مصدريّة القرآن أنّه من عند الخالق مع ما في الأمثلة من شرف البيان ووقعا في نفوس السامعين ...حسنا... المثال من القرآن... قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥)﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

فَشَبَّهَ سُبْحَانَهُ الْكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ بِالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ، لِأَنَّ الْكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ تُثْمِرُ الْعَمَلَ الصَّالِحَ، وَالشَّجَرَةَ الطَّيِّبَةَ تُثْمِرُ الثَّمَرَ النَّافِعَ.

وَهَذَا ظَاهِرٌ عَلَى قَوْلِ جُمْهُورِ الْمُفَسِّرِينَ الَّذِينَ يَقُولُونَ: الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ هِيَ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِنَّهَا تُثْمِرُ جَمِيعَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، فَكُلُّ عَمَلٍ صَالِحٍ مَرضِيٍّ لله تعالى ثَمَرَةُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ.

وَأَصْلُهَا الثَّابِتُ الَّذِي لَا يَزُولُ الْإِخْلَاصُ فِيهِ، وَفَرْعُهُ فِي السَّمَاءِ خَشْيَةُ اللهِ.

وَالتَّشْبِيهُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ أَصَحُّ وَأَظْهَرُ وَأَحْسَنُ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ شَبَّهَ شَجَرَةَ التَّوْحِيدِ فِي الْقَلْبِ بِالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ الثَّابِتَةِ الْأَصْلِ الْبَاسِقَةِ الْفَرْعِ فِي السَّمَاءِ عُلُوًّا، الَّتِي لَا تَزَالُ تُؤْتِي ثَمَرَتَهَا كُلَّ حِينٍ، وَإِذَا تَأَمَّلْت هَذَا التَّشْبِيهَ رَأَيْتَهُ مُطَابِقًا لِشَجَرَةِ التَّوْحِيدِ الثَّابِتَةِ الرَّاسِخَةِ فِي الْقَلْبِ، الَّتِي فُرُوعُهَا مِنْ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ صَاعِدَةٌ إِلَى السَّمَاءِ، وَلَا تَزَال هَذِهِ الشَّجَرَةُ تُثْمِرُ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ

كُلَّ وَقْتٍ؛ بِحَسْبِ ثَبَاتِهَا فِي الْقَلْبِ، وَمَحَبَّةِ الْقَلْبِ لَهَا، وَإِخْلَاصِهِ فِيهَا، وَمَعْرِفَتِهِ بِحَقِيقَتِهَا، وَقِيَامِهِ بِحَقِّهَا، وَمُرَاعَاتِهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا، فَمَنْ رَسَخَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ فِي قَلْبِهِ بِحَقِيقَتِهَا الَّتِي هِيَ حَقِيقَتُهَا وَاتَّصَفَ قَلْبُهُ بِهَا، وَانْصَبَغَ بِهَا بِصِبْغَةِ اللهِ الَّتِي لَا أَحْسَنَ صِبْغَةً مِنْهَا، فَعَرَفَ حَقِيقَةَ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي يُثْبِتُهَا قَلْبُهُ للهِ وَيَشْهَدُ بِهَا لِسَانُهُ وَتُصَدِّقُهَا جَوَارِحُهُ، وَنَفَى تِلْكَ الْحَقِيقَةَ وَلَوَازِمَهَا عَنْ كُلِّ مَا سِوَى اللهِ تعالى، وَوَاطَأَ قَلْبُهُ لِسَانَهُ فِي هَذَا النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، وَانْقَادَتْ جَوَارِحُهُ لِمَنْ شَهِدَ لَهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ طَائِعَةً سَالِكَةً سُبُلَ رَبِّهِ ذُلُلًا غَيْرَ نَاكِبَةٍ عَنْهَا وَلَا بَاغِيَةٍ سِوَاهَا بَدَلًا، كَمَا لَا يَبْتَغِي الْقَلْبُ سِوَى مَعْبُودِهِ الْحَقِّ بَدَلًا.

فَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ مِنْ هَذَا الْقَلْبِ عَلَى هَذَا اللِّسَانِ لَا تَزَالُ تُؤْتِي ثَمَرَتَهَا مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ الصَّاعِدِ إِلَى اللهِ كُلَّ وَقْتٍ، فَهَذِهِ الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ هِيَ الَّتِي رَفَعَتْ هَذَا الْعَمَلَ الصَّالِحَ إِلَى الرَّبِّ سبحانه وتعالى، وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ تُثْمِرُ كَلِمًا كَثِيرًا طَيِّبًا يُقَارِنُهُ عَمَلٌ صَالِحٌ فَيَرْفَعُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ الْكَلِمَ الطَّيِّبَ، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ يَرْفَعُ الْكَلِمَ الطَّيِّبَ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الْكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ تُثْمِرُ لِقَائِلِهَا عَمَلًا صَالِحًا كُلَّ وَقْتٍ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ إِذَا شَهِدَ الْمُؤْمِنُ بِهَا عَارِفًا بِمَعْنَاهَا وَحَقِيقَتِهَا نَفْيًا وَإِثْبَاتًا مُتَّصِفًا بِمُوجَبِهَا قَائِمًا قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ وَجَوَارِحُهُ بِشَهَادَتِهِ، فَهَذِهِ

الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ هِيَ الَّتِي رَفَعَتْ هَذَا الْعَمَلَ مِنْ هَذَا الشَّاهِدِ، أَصْلُهَا ثَابِتٌ رَاسِخٌ فِي قَلْبِهِ، وَفُرُوعُهَا مُتَّصِلَةٌ بِالسَّمَاءِ، وَهِيَ مُخْرِجَةٌ ثَمَرَتَهَا كُلَّ وَقْتٍ.

وَفِي هَذَا الْمَثَلِ مِنْ الْأَسْرَارِ وَالْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ مَا يَلِيقُ، وَيَقْتَضِيه عِلْمُ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ سبحانه وَحِكْمَتُهُ.

فَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّ الشَّجَرَةَ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ عُرُوقٍ وَسَاقٍ وَفُرُوعٍ وَوَرَقٍ وَثَمَرٍ، فَكَذَلِكَ شَجَرَةُ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، لِيُطَابِقَ الْمُشَبَّهُ الْمُشَبَّهَ بِهِ، فَعُرُوقُهَا الْعِلْمُ وَالْمَعْرِفَةُ وَالْيَقِينُ، وَسَاقُهَا الْإِخْلَاصُ، وَفُرُوعُهَا الْأَعْمَالُ، وَثَمَرَتُهَا مَا تُوجِبُهُ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ مِنْ الْآثَارِ الْحَمِيدَةِ وَالصِّفَاتِ الْمَمْدُوحَةِ وَالْأَخْلَاقِ الزَّكِيَّةِ وَالسَّمْتِ الصَّالِحِ وَالْهَدْيِ وَالدَّلِّ الْمَرْضِيِّ، فَيُسْتَدَلُّ عَلَى غَرْسِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ فِي الْقَلْبِ وَثُبُوتِهَا فِيهِ بِهَذِهِ الْأُمُورِ.

فَإِذَا كَانَ الْعِلْمُ صَحِيحًا مُطَابِقًا لِمَعْلُومِهِ الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ كِتَابَهُ بِهِ، وَالِاعْتِقَادُ مُطَابِقًا لِمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَأَخْبَرَتْ بِهِ عَنْهُ رُسُلُهُ صلوات الله وسلامه عليهم، وَالْإِخْلَاصُ قَائِمٌ فِي الْقَلْبِ، وَالْأَعْمَالُ مُوَافِقَةٌ لِلْأَمْرِ، وَالْهَدْيُ وَالدَّلُّ وَالسَّمْتُ مُشَابِهٌ لِهَذِهِ الْأُصُولِ مُنَاسِبٌ لَهَا، عُلِمَ أَنَّ شَجَرَةَ الْإِيمَانِ فِي الْقَلْبِ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ عُلِمَ أَنَّ الْقَائِمَ بِالْقَلْبِ إِنَّمَا هُوَ الشَّجَرَةُ الْخَبِيثَةُ الَّتِي اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ.

وَمِنْهَا: أَنَّ الشَّجَرَةَ لَا تَبْقَى حَيَّةً إِلَّا بِمَادَّةٍ تَسْقِيهَا وَتُنَمِّيهَا، فَإِذَا انقطعَ عَنْها السَّقْيُ أَوْشَكَ أَنْ تَيْبَسَ.

فَهَكَذَا شَجَرَةُ الْإِسْلَامِ فِي الْقَلْبِ إِنْ لَمْ يَتَعَاهَدْهَا صَاحِبُهَا بِسَقْيِهَا كُلَّ وَقْتٍ بِالْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالْعَوْدِ بِالتَّذَكُّرِ عَلَى التَّفْكِيرِ وَالتَّفَكُّرِ عَلَى التَّذَكُّرِ، وَإِلَّا أَوْشَكَ أَنْ تَيْبَسَ.

وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الْإِيمَانَ يَخْلَقُ فِي الْقَلْبِ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ فَجَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ».

وَبِالْجُمْلَةِ فَالْغَرْسُ إِنْ لَمْ يَتَعَاهَدْهُ صَاحِبُهُ أَوْشَكَ أَنْ يَهْلَكَ، وَمِنْ هُنَا تَعْلَمُ شِدَّةَ حَاجَةِ الْعِبَادِ إِلَى مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ مِنْ الْعِبَادَاتِ عَلَى تَعَاقُبِ الْأَوْقَاتِ وَعَظِيمِ رَحْمَتِهِ وَتَمَامِ نِعْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَى عِبَادِهِ بِأَنْ وَضعهَا عَلَيْهِم وَجَعَلَهَا مَادَّةً لِسَقْيِ غِرَاسِ التَّوْحِيدِ الَّذِي غَرَسَهُ فِي قُلُوبِهِمْ.

وَمِنْهَا: أَنَّ الْغَرْسَ وَالزَّرْعَ النَّافِعَ قَدْ أَجْرَى اللهُ سُبْحَانَهُ الْعَادَةَ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يُخَالِطَهُ دَغَلٌ وَنَبْتٌ غَرِيبٌ لَيْسَ مِنْ جِنْسِهِ، فَإِنْ تَعَاهَدَهُ رَبُّهُ وَنَقَّاهُ وَقَلَعَهُ كَمُلَ الْغَرْسُ وَالزَّرْعُ، وَاسْتَوَى، وَتَمَّ نَبَاتُهُ وَكَانَ أَوْفَرَ لِثَمَرَتِهِ، وَأَطْيَبَ وَأَزْكَى، وَإِنْ تَرَكَهُ أَوْشَكَ أَنْ يَغْلِبَ عَلَى الْغَرْسِ وَالزَّرْعِ، وَيَكُونُ الْحُكْمُ لَهُ، أَوْ يُضْعِفَ الْأَصْلَ وَيَجْعَلَ الثَّمَرَةَ ذَمِيمَةً نَاقِصَةً بِحَسْبِ كَثْرَتِهِ وَقِلَّتِهِ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِقْهُ نَفْسٍ فِي هَذَا وَمَعْرِفَةٌ بِهِ فَإِنَّهُ يَفُوتُهُ رِبْحٌ كَبِيرٌ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، **فَالْمُؤْمِنُ دَائِمًا سَعْيُهُ فِي شَيْئَيْنِ: سَقْيِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ، وَتَنْقِيَةِ مَا حَوْلَهَا،**

فَبِسَقْيِهَا تَبْقَى وَتَدُومُ، وَبِتَنْقِيَةِ مَا حَوْلَهَا تَكْمُلُ وَتَتِمُّ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ.

فَهَذَا بَعْضُ مَا تَضَمَّنَهُ هَذَا الْمَثَلُ الْعَظِيمُ الْجَلِيلُ مِنْ الْأَسْرَارِ وَالْحِكَمِ، وَلَعَلَّهَا قَطْرَةٌ مِنْ بَحْرٍ بِحَسَبِ أَذْهَانِنَا الْوَاقِفَةِ، وَقُلُوبِنَا الْمُخْبِطَةِ، وَعُلُومِنَا الْقَاصِرَةِ، وَأَعْمَالِنَا الَّتِي تُوجِبُ التَّوْبَةَ وَالِاسْتِغْفَارَ، وَإِلَّا فَلَوْ طَهُرَتْ مِنَّا الْقُلُوبُ، وَصَفَتْ الْأَذْهَانُ، وَزَكَتْ النُّفُوسُ، وَخَلَصَتْ الْأَعْمَالُ، وَتَجَرَّدَتْ الهمم لِلتَّلَقِّي عَنْ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ؛ لَشَاهَدْنَا مِنْ مَعَانِي كَلَامِ اللهِ تعالى وَأَسْرَارِهِ وَحِكَمِهِ مَا تَضْمَحِلُّ عِنْدَهُ الْعُلُومُ، وَتَتَلَاشَى عِنْدَهُ مَعَارِفُ الْخَلْقِ.

وَبِهَذَا تَعْرِفُ قَدْرَ عُلُومِ الصَّحَابَةِ وَمَعَارِفِهِمْ -رضي الله عنهم-، وَأَنَّ التَّفَاوُتَ الَّذِي بَيْنَ عُلُومِهِمْ وَعُلُومِ مَنْ بَعْدَهُمْ كَالتَّفَاوُتِ الَّذِي بَيْنَهُمْ فِي الْفَضْلِ، وَاللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ مَوَاقِعَ فَضْلِهِ وَمَنْ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ.

وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)﴾ [إبراهيم: ٢٦، ٢٧].

ذَكَرَ سُبْحَانَهُ مَثَلَ الْكَلِمَةِ الْخَبِيثَةِ فَشَبَّهَهَا بِالشَّجَرَةِ الْخَبِيثَةِ الَّتِي ﴿اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ﴾، فَلَا عِرْقَ ثَابِتٌ، وَلَا فَرْعَ عَالٍ، وَلَا ثَمَرَةَ زَاكِيَةٌ، فَلَا

ظِلَّ، وَلَا جَنَى، وَلَا سَاقَ قَائِمٌ، وَلَا عِرْقَ فِي الْأَرْضِ ثَابِتٌ، فَلَا أَسْفَلَهَا مُغْدِقٌ وَلَا أَعْلَاهَا مُونِقٌ، وَلَا جَنَى لَهَا، وَلَا تَعْلُو بَلْ تُعْلَى.

وَإِذَا تَأَمَّلَ اللَّبِيبُ أَكْثَرَ كَلَامِ هَذَا الْخَلْقِ فِي خِطَابِهِمْ وَكتبهم وَجَدَهُ كَذَلِكَ، فَالْخُسْرَانُ كلَّ الخسران الْوُقُوفُ مَعَهُ وَالِاشْتِغَالُ بِهِ عَنْ أَفْضَلِ الْكَلَامِ وَأَنْفَعِهِ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وَهِيَ الشِّرْكُ ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ يَعْنِي الْكَافِرَ، ﴿اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾، ويَقُولُ: الشِّرْكُ لَيْسَ لَهُ أَصْلٌ يَأْخُذُ بِهِ الْكَافِرُ وَلَا بُرْهَانٌ، وَلَا يَقْبَلُ اللهُ مَعَ الشِّرْكِ عَمَلًا، فَلَا يَقْبَلُ اللهُ عَمَلَ الْمُشْرِكِ، وَلَا يَصْعَدُ إِلَى اللهِ، فَلَيْسَ لَهُ أَصْلٌ ثَابِتٌ فِي الْأَرْضِ، وَلَا فَرْعٌ فِي السَّمَاءِ، يَقُولُ: لَيْسَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ فِي السَّمَاءِ وَلَا فِي الآخرة.

وَقَوْلُهُ: ﴿اجْتُثَّتْ﴾ أَي: اسْتُؤْصِلَتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ.

ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ فَضْلِهِ وَعَدْلِهِ فِي الْفَرِيقَيْنِ أَصْحَابِ الْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَالْكَلِمِ الْخَبِيثِ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يُثَبِّتُ الَّذِينَ آمَنُوا بِإِيمَانِهِمْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ أَحْوَجَ مَا يَكُونُونَ إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَنَّهُ يُضِلُّ الظَّالِمِينَ وَهُمْ الْمُشْرِكُونَ عَنْ الْقَوْلِ الثَّابِتِ، فَأَضَلَّ هَؤُلَاءِ بِعَدْلِهِ لِظُلْمِهِمْ، وَثَبَّتَ الْمُؤْمِنِينَ بِفَضْلِهِ لِإِيمَانِهِمْ.

وَتَحْتَ قَوْلِهِ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ كَنْزٌ عَظِيمٌ مَنْ وقف عليه لِمَظِنَّتِهِ وَأَحْسَنَ اسْتِخْرَاجَهُ وَاقْتِنَاءَهُ

وَأَنْفَقَ مِنْهُ فَقَدْ غَنِمَ، وَمَنْ حُرِمَهُ فَقَدْ حُرِمَ، وَذَلِكَ أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَسْتَغْنِي عَنْ تَثْبِيتِ اللهِ لَهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ.

فَإِنْ لَمْ يُثَبِّتْهُ وَإِلَّا زَالَ سَمَاءُ إِيمَانِهِ وَأَرْضِهِ عَنْ مَكَانِهِمَا، وَقَدْ قَالَ تعالى لِأَكْرَمِ خَلْقِهِ عَلَيْهِ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤)﴾ [الإسراء: ٧٤]، وَقَالَ تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيثِ الْتجَلِي قَالَ: «وَهُوَ يَأْمرهم وَيُثَبِّتُهُمْ».

وَقَالَ تعالى لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]، فَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ قِسْمَانِ: مُوَفَّقٌ بِالتَّثْبِيتِ، وَمَخْذُولٌ بِتَرْكِ التَّثْبِيتِ، وَمَادَّةُ **التَّثْبِيتِ أَصْلُهُ وَمَنْشَؤُهُ مِنْ الْقَوْلِ الثَّابِتِ، وَفِعْلِ مَا أُمِرَ بِهِ الْعَبْدُ، فَبِهِمَا يُثَبِّتُ اللهُ عَبْدَهُ، فَكُلُّ مَنْ كَانَ أَثْبَتَ قَوْلًا وَأَحْسَنَ فِعْلًا كَانَ أَعْظَمَ تَثْبِيتًا**، قَالَ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦)﴾ [النساء: ٦٦] فَأَثْبَتُ النَّاسِ قَلْبًا أَثْبَتُهُمْ قَوْلًا.

وَالْقَوْلُ الثَّابِتُ هُوَ الْقَوْلُ الْحَقُّ وَالصِّدْقُ، وَهُوَ ضِدُّ الْقَوْلِ الْبَاطِلِ الْكَذِبِ؛ فَالْقَوْلُ نَوْعَانِ:

- ثَابِتٌ لَهُ حَقِيقَةٌ.
- وَبَاطِلٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ.

- وَأَثْبَتُ الْقَوْلِ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ وَلَوَازِمُهَا، فَهِيَ أَعْظَمُ مَا يُثَبِّتُ اللهُ بِهَا عبادَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلِهَذَا تَرَى الصَّادِقَ مِنْ أَثْبَتِ النَّاسِ وَأَشْجَعِهِمْ قَلْبًا، وَالْكَاذِبَ مِنْ أَمْهَنِ النَّاسِ وَأَخْبَثِهِمْ وَأَكْثَرِهِمْ تَلَوُّنًا وَأَقَلِّهِمْ ثَبَاتًا، وَأَهْلُ الْفِرَاسَةِ يَعْرِفُونَ صِدْقَ الصَّادِقِ مِنْ ثَبَاتِ قَلْبِهِ وَقْتَ الْاختبارِ وَشَجَاعَتِهِ وَمَهَابَتِهِ، وَيَعْرِفُونَ كَذِبَ الْكَاذِبِ بِضِدِّ ذَلِكَ، وَلَا يَخْفَى ذَلِكَ إِلَّا عَلَى ضَعِيفِ الْبَصِيرَةِ.

وَسُئِلَ بَعْضُهُمْ عَنْ كَلَامٍ سَمِعَهُ مِنْ مُتَكَلِّمٍ بِهِ، فَقَالَ: وَاللهِ مَا فَهِمْت مِنْهُ شَيْئًا، إِلَّا أَنِّي سمعت لِكَلَامِهِ صَوْلَةً لَيْسَتْ بِصَوْلَةِ مُبْطِلٍ، فَمَا مُنِحَ الْعَبْدُ مِنْحَةً أَفْضَلَ مِنْ مِنْحَةِ الْقَوْلِ الثَّابِتِ وَيَجِدُ أَهْلُ الْقَوْلِ الثَّابِتِ ثَمَرَتَهُ أَحْوَجَ مَا يَكُونُونَ إِلَيْهِ فِي قُبُورِهِمْ وَيَوْمَ مَعَادِهِمْ.

[75]

المثال التاسع: قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)﴾ [يس: ٧٨ - ٨٣].

---

[75] الجامع في أمثال القرآن، ابن القيم

قال سبحانه في تثبيت أمر البعث: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩)﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]. إلى آخر السورة.

فلو رام أعلم البشر وأفصحهم وأقدرهم على البيان أن يأتي بأحسن من هذه الحجة أو بمثلها في ألفاظ تشابه هذه الألفاظ، في الإيجاز والاختصار، ووضوح الدلالة، وصحة البرهان لألفى نفسه ظاهر العجز منقطع الطمع يستحي الناس من ذلك.

فإنه سبحانه افتتح هذه الحجة بسؤال أورده الملحد اقتضى جوابًا فكان في قوله سبحانه: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ ما وَفَّى بالجواب، وأقام الحجة وأزال الشبهة، لولا ما أراد سبحانه من تأكيد حجته وزيادة تقريرها، وذلك أنه سبحانه أخبر أن هذا الملحد السائل عن هذه المسألة لو لم ينس خلق نفسه، وبدأ كونه، وذكر خلقه، لكانت فكرته فيه كافية في جوابه مسكتة له عن هذا السؤال، ثم أوضح سبحانه ما تضمنه قوله: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ وصرح به جوابًا له عن مسألته فقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]. فاحتج بالإبداء على الإعادة، وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى، إذ كل عاقل يعلم علمًا ضروريًّا أن من قدر على هذه قدر على هذه، وأنه لو كان عاجزًا عن الثانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز.

ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على مخلوقه، وعلمه بتفاصيل خلقه اتبع ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩].

فهو عليم بالخلق الأول وتفاصيله وجزئياته ومواده وصورته وعلله الأربع.
وكذلك هو عليم بالخلق الثاني وتفاصيله ومواده وكيفية إنشائه، فإن كان تام العلم كامل القدرة كيف يتعذر عليه أن يحيي العظام وهي رميم.
ثم أكد الأمر بحجة قاهرة وبرهان ظاهر يتضمن جوابًا عن سؤال ملحد آخر يقول: العظام إذا صارت رميمًا عادت طبيعتها باردة يابسة، والحياة لا بد أن تكون مادتها وحاملها طبيعته حارة رطبة لتقبل صورة الحياة، فتولى سبحانه جواب هذا السؤال بما يدل على أمر البعث ففيه الدليل والجواب معًا فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠)﴾ [يس: ٨٠].
فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الأخضر الممتلئ بالرطوبة والبرودة، فالذي يخرج الشيء من ضده وتنقاد له مواد المخلوقات وعناصرها ولا تستعصي عليه هو الذي يفعل ما أنكره الملحد، ودفعه من إحياء العظام وهي رميم.
ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من الشيء الأجل الأعظم على الأيسر الأصغر، وأن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل فهو على ما دونه بكثير أقدر وأقدر.
فمن قدر على حمل قنطار فهو على حمل أوقية أشد اقتدارًا، فقال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١)﴾ [يس: ٨١].

فأخبر سبحانه أن الذي أبدع السموات والأرض على جلالتهما وعظم شأنهما وكبر أجسامهما وسعتهما وعجيب خلقتهما أقدر على أن يحيي عظامًا قد صارت رميمًا فيردها إلى حالتها الأولى، كما قال في موضع آخر: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧)﴾ [غافر: ٥٧].

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣)﴾ [الأحقاف: ٣٣].

ثم أخذ سبحانه ذلك وبينه بيانًا آخر يتضمن مع إقامة الحجة دفع شبهة كل ملحد وجاحد، وهو أنه ليس في فعله بمنزلة غيره الذي يفعل بالآلات والكلفة والتعب والمشقة ولا يمكنه الاستقلال بالفعل بل لا بد معه من آلة ومشارك ومعين، بل يكفي في خلقه لما يريد أن يخلقه ويكونه نفس إرادته وقوله للمكون: كن، فإذا هو كائن كما شاءه وأراده.

فأخبر عن نفاذ مشيئته وإرادته وسرعة تكوينه وانقياد المكون له وعدم استعصائه عليه.

ثم ختم هذه الحجة بإخباره أن ملكوت كل شيء بيده فيتصرف فيه بفعله وهو قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣].

فتبارك الذي تكلم بهذا الكلام الذي جمع في نفسه بوجازته وبيانه وفصاحته وصحة برهانه كل ما تلزم الحاجة إليه من تقرير الدليل، وجواب

الشبهة، ودحض حجة الملحد، وإسكات المعاند **بألفاظ لا أعذب منها عند السمع، ولا أحلى منها ومن معانيها للقلب، ولا أنفع من ثمرتها للعبد.**[76]

المثال العاشر: قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢)﴾ [الحجرات: ١٢].

هَذَا مِنْ أَحْسَنِ الْقِيَاسِ التَّمْثِيلِيِّ، فَإِنَّهُ شَبَّهَ تَمْزِيقَ عِرْضِ الْأَخِ بِتَمْزِيقِ لَحْمِهِ، وَلَمَّا كَانَ الْمُغْتَابُ يُمَزِّقُ عِرْضَ أَخِيهِ فِي غِيبَتِهِ كَانَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَقْطَعُ لَحْمَهُ فِي حَالِ غِيبَةِ رُوحِهِ عَنْهُ بِالْمَوْتِ، وَلَمَّا كَانَ الْمُغْتَابُ عَاجِزًا عَنْ دَفْعِهِ بِنَفْسِهِ بِكَوْنِهِ غَائِبًا عَنْ ذَمِّهِ كَانَ بِمَنْزِلَةِ الْمَيِّتِ الَّذِي يُقَطَّعُ لَحْمُهُ وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ، وَلَمَّا كَانَ مُقْتَضَى الْأُخُوَّةِ التَّرَاحُمَ وَالتَّوَاصُلَ وَالتَّنَاصُرَ فَعَلَّقَ عَلَيْهَا الْمُغْتَابُ ضِدَّ مُقْتَضَاهَا مِنْ الذَّمِّ وَالْعَيْبِ وَالطَّعْنِ كَانَ ذَلِكَ نَظِيرَ تَقْطِيعِ لَحْمِ أَخِيهِ، وَالْأُخُوَّةُ تَقْتَضِي حِفْظَهُ وَصِيَانَتَهُ وَالذَّبَّ عَنْهُ، وَلَمَّا كَانَ الْمُغْتَابُ مُتَفَكِّهًا بِغِيبَتِهِ وَذَمِّهِ مُتَحَلِّيًا بِذَلِكَ شُبِّهَ بِآكِلِ لَحْمِ أَخِيهِ بَعْدَ تَقْطِيعِهِ، وَلَمَّا كَانَ الْمُغْتَابُ مُحِبًّا لِذَلِكَ مُعْجَبًا بِهِ شُبِّهَ بِمَنْ يُحِبُّ أَكْلَ لَحْمِ أَخِيهِ مَيْتًا، وَمَحَبَّتُهُ لِذَلِكَ قَدْرٌ زَائِدٌ عَلَى مُجَرَّدِ أَكْلِهِ، كَمَا أَنَّ أَكْلَهُ قَدْرٌ زَائِدٌ عَلَى تَمْزِيقِهِ.

---

[76] نفس المصدر السابق

فَتَأَمَّلْ هَذَا التَّشْبِيهَ وَالتَّمْثِيلَ وَحُسْنَ مَوْقِعِهِ وَمُطَابقَته المَعْقُول فِيهِ المَحْسُوسَ، وَتَأَمَّلْ إخْبَارَهُ عَنْهُمْ بِكَرَاهَةِ أَكْلِ لَحْمِ الْأَخِ مَيْتًا، وَوَصْفَهُمْ بِذَلِكَ فِي آخِرِ الْآيَةِ، وَالْإِنْكَارَ عَلَيْهِمْ فِي أَوَّلِهَا أَنْ يُحِبَّ أَحَدُهُمْ ذَلِكَ، فَكَمَا أَنَّ هَذَا مَكْرُوهٌ فِي طِبَاعِهِمْ فَكَيْفَ يُحِبُّونَ مَا هُوَ مِثْلُهُ وَنَظِيرُهُ.
فَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِمَا كَرِهُوهُ عَلَى مَا أَحَبُّوهُ، وَشَبَّهَ لَهُمْ مَا يُحِبُّونَهُ بِمَا هُوَ أَكْرَهُ شَيْءٍ إلَيْهِمْ، وَهُمْ أَشَدُّ شَيْءٍ نُفْرَةً عَنْهُ؛ فَلِهَذَا يُوجِبُ الْعَقْلُ وَالْفِطْرَةُ وَالْحِكْمَةُ أَنْ يَكُونُوا أَشَدَّ شَيْءٍ نُفْرَةً عَمَّا هُوَ نَظِيرُهُ وَمُشْبِهُهُ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ.[77]

وأختم بهذا المثال إذ يُناديني الله -عز وجل- فقال تعالى ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]... فما أروع ذلك النداء!

أرأيتم؟... استعمل الله -عز وجل- **لغة الحياة لحياة الأحياء للإبانة عن حقيقة الحياة... بنظم يعجزُ الأحياء عن مثله...**

الأولاد:

---

[77] نفس المصدر السابق

لقد شوّقتنا حقا لقراءة القرآن!

الأرض:

حسنا... هذه بعض الأسرار عن البيان... ضعوا الآن هذه النظارات

(وناولهم الرجل نظارات)

الأولاد:

ما هذا ؟

سجّل بريدك الالكتروني على الموقع التالي لتصلك الأجزاء التالية عند إصدارها إن شاء الله

https://baytalhayat.com